سِیاطِ القلوب

عائض بن عبداللہ القرنی

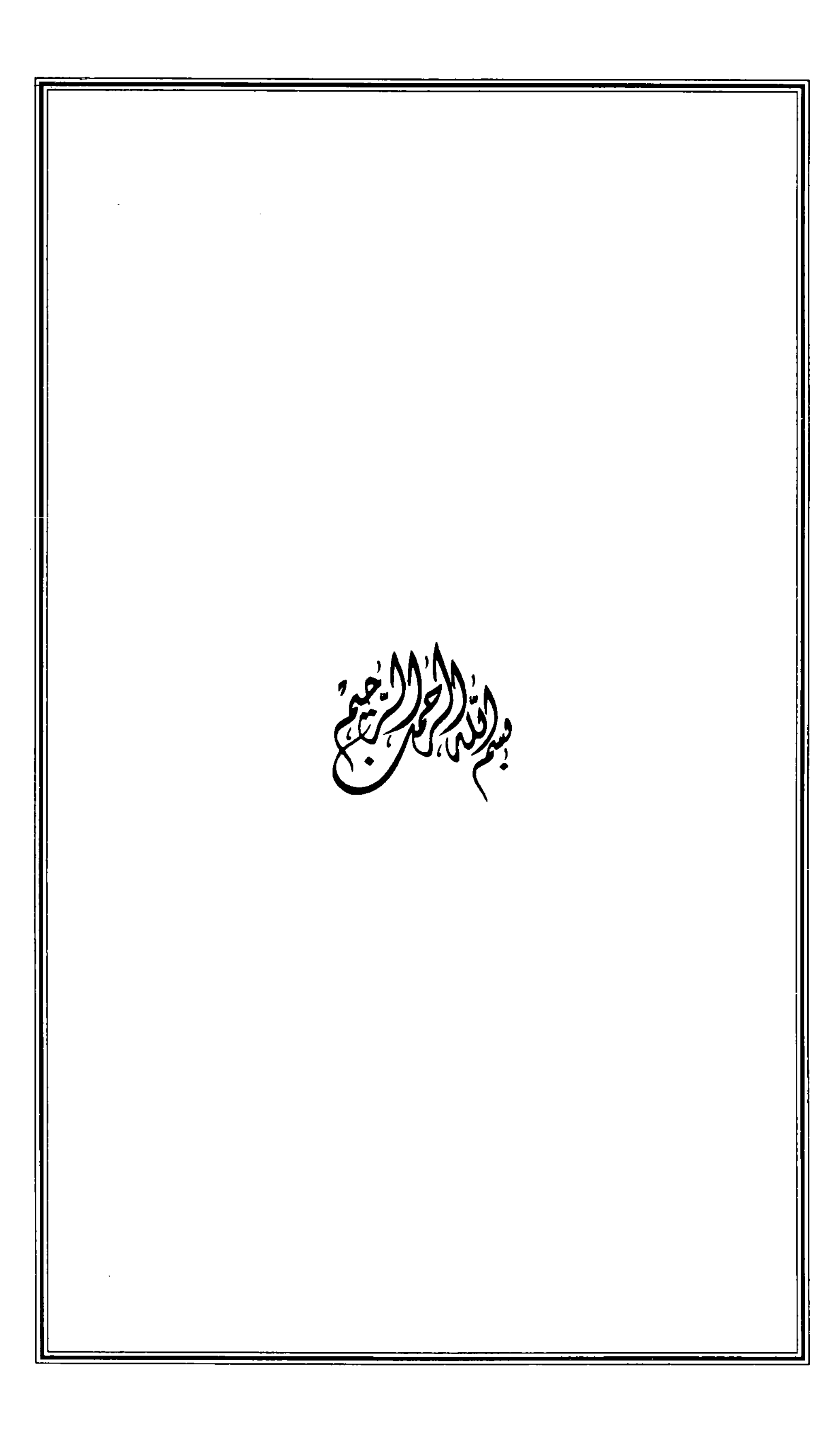
دار ابن حزم

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

سِيَاطُ القُلُوبِ


بسم الله الرحمن الرحيم



المؤلف في سطور

- الدكتور عائض بن عبدالله بن عائض آل مجدوع القرني.
- من مواليد عام ١٣٧٩هـ ببلاد القرن جنوب المملكة العربية السعودية.
- حصل على الشهادة الجامعية من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤هـ.
- حصل على الماجستير في الحديث النبوي عام ١٤٠٨هـ وعنوان رسالته: «البدعة وأثرها في الدراية والرواية».
- حصل على الدكتوراه من جامعة الإمام عام ١٤٢٢هـ بعنوان: «دراسة وتحقيق كتاب المفهم على صحيح مسلم للقرطبي».
- له أكثر من ثمانمائة شريط كاسيت إسلامي في الخطب والدروس والمحاضرات والأمسيات الشعرية والندوات الأدبية.
- يحفظ القرآن الكريم، وكتاب «بلوغ المرام»، ويستحضر ما يقارب من خمسة آلاف حديث وأكثر من عشرة آلاف بيت شعر.
- له أربعة دواوين شعرية هي:

  ١ ـ لحن الخلود.

  ٢ ـ تاج المدائح.

  ٣ ـ هدايا وتحايا.

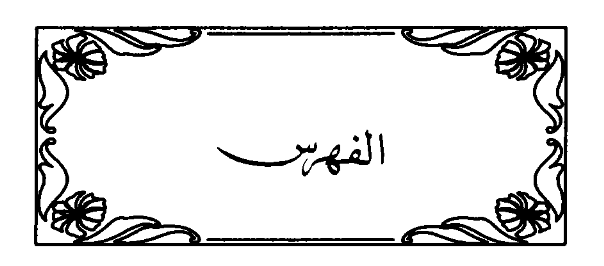
  ٤ ـ قصة الطموح.

- أما مؤلفاته: فقد ألّف في الحديث والتفسير والفقه والأدب والسيرة والتراجم، ومن مؤلفاته التي أصدرتها دار ابن حزم بلبنان:

١ - الإسلام وقضايا العصر.
٢ - تاج المدائح.
٣ - ثلاثون سبباً للسعادة.
٤ - دروس المسجد في رمضان.
٥ - فاعلم أنه لا إله إلا الله.
٦ - مجتمع المُثل.
٧ - ورد المسلم والمسلمة.
٨ - فقه الدليل.
٩ - نونية القرني.
١٠ - المعجزة الخالدة.
١١ - اقرأ باسم ربك.
١٢ - تحف نبوية.
١٣ - حتى تكون أسعد الناس.
١٤ - سياط القلوب.
١٥ - فتية آمنوا بربهم.
١٦ - هكذا قال لنا المعلم.
١٧ - ولكن كونوا ربانيين.
١٨ - من موحد إلى ملحد.
١٩ - إمبراطور الشعراء.
٢٠ - وحي الذاكرة.
٢١ - إلى الذين أسرفوا على أنفسهم.
٢٢ - ترجمان السنة.
٢٣ - حدائق ذات بهجة.
٢٤ - العظمة.
٢٥ - لا تحزن.
٢٦ - وجاءت سكرة الموت بالحق.
٢٧ - مقامات القرني.
٢٨ - احفظ الله يحفظك.
٢٩ - أعذب الشعر.

* حضر عشرات المحاضرات والأمسيات، وحضر مؤتمر الشباب العربي المسلم ومؤتمر الكتاب والسنة بالولايات المتحدة الأمريكية، وحاضر في الأندية الأدبية والرياضية وحاضر في الجامعات والملتقيات الثقافية.

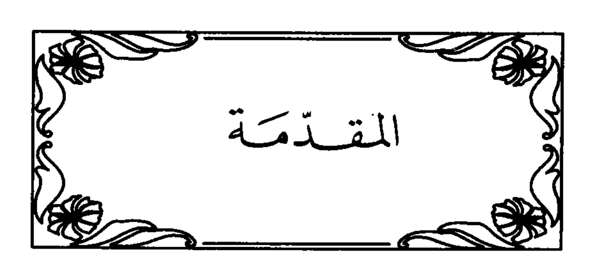
* * *



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



أيها القارىء الكريم، هذا الكلام بين يديك هو ليحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ، وهو واحد من أولئك العلماء العظماء الأولياء، الذين صفت قلوبهم حتى بدت أكثر صفاءً من الصبح المنير، والشمس الساطعة، والبدر المضيء، وزكت أنفسهم حتى كانت أنقى من ماء المزن، وبياض الثلج، وصلحت نواياهم، وفاح طيب مقاصدهم على كلامهم، فسرى عبيره ينثر عطر الحب، وشذى الإِيمان في أرجاء المعمورة.

ألا إِن وادي الجزع أضحى ترابه   من المسك كافوراً وأعواده رندا
وما ذاك إِلا أن هنداً عشية   تمشّت وجرت في جوانبه بردا

يحيى بن معاذ: آية من آيات الله في الأرض، له كلام، عليه جلال الوحي، ونور النبوة، وعبق الإِلهام، ليس ليحيى مجلدات كبيرة، ولا مؤلفات عديدة، ولا مصنفات ذائعة، لكن كلماته التي بثها في الناس تزينت بها الكتب، وتضمخت بها المؤلفات، كانت كالجواهر الحسان، ترصع بها ورقات المؤلفين، وكاللآلىء المضيئة في صدور المصنفات، ولقد نقل عنه كثير من الأئمة الكبار ـ رحمهم الله جميعاً ـ.

لقد لفت هذا الإِمام انتباهي، وأثار إعجابي، وسكنت كلماته قلبي، وتمكنت من فؤادي، له من الكلام ما يبهر العقول، ويهز النفوس، ويسبي القلوب.

ليحيى بن معاذ روائع مذهلة، وكلمات نفاذة، خلابة ممتعة، تسمع بعضها فتمتلىء عجباً، وتنثني طرباً، وتسجد للباري حياءً وأدباً:

«من استحيى من الله مطيعاً، استحيى الله منه وهو مذنب».

«الليل طويل، فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك».

تسمع بعض روائعه فإذا بشآبيب الدموع واكفة، وإذا القلوب واجفة، وإذا شعيرات الجسد واقفة، وإذا الأرواح على التقصير آسفة:

«يا جهول، يا غفول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لَمتَّ طرباً».

«من خان الله عز وجل في السر، هتك سره في العلانية».

يحيى بن معاذ: في الوعاظ كالشافعي في الفقهاء، وابن تيمية في العلماء، والمتنبي في الشعراء، والجاحظ في الأدباء، والجرجاني في البلغاء، وسحبان في الخطباء، وحاتم في الكرماء.

يحيى بن معاذ: لم يكن همه كأس وجارية، وليس له عين جارية، ولم يكن له كتب مطبوعة، ولا سرر مرفوعة، ولا أكواب موضوعة، وليس له زرابي مبثوثة، ولا نمارق مصفوفة، ولم تكن جلسته بالخدم محفوفة، ولا بالكبر معروفة، احتسب طيباته عند الحسيب، وادّخر نعيمه عند الرقيب، وشغل فكره وقلبه بذكر الحبيب.

لقد كان يحيى برّاً بأمته، ولم يكن جباراً شقياً، وآتاه الله العلم والمعرفة والحكمة صبياً، وملأ قلبه حباً وحناناً وزكاةً وكان تقياً.

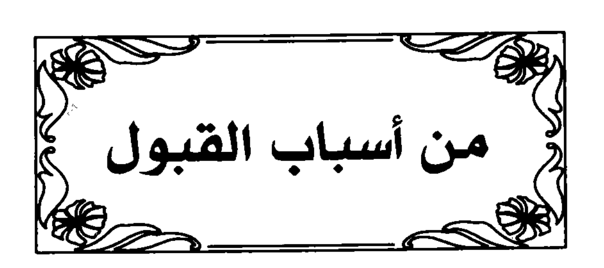
لقد تأمل كلام الحبيب، ووحي الرقيب، فإذا مناديه يهتف: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ فأخذ يحيى كتاب ربه بقوةٍ فائقة، قوة في

حفظه، قوة في فهمه، قوة في تدبره، قوة في العمل به، قوة في الاحتكام إليه، قوة في بث هدايته للناس.

إنني حرصت على إظهار ما تيسر لي من كلمات هذا الإمام الرباني، والعالم الروحاني، لتكون زاداً يتزود به المتقون، ويفرح به المحبون، ويأنس به المؤمنون بعد كتاب ربهم، وهدي نبيهم ﷺ، فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

غفر الله لذلك الإمام ورفع قدره، وأعلى درجته، وأعظم مثوبته، وجمعنا به في جنات النعيم.. إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





تميز كلام يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ بعدة أمور:

أولها: الإِخلاص وصفاء النية، وجمال القصد، ونصوع الهدف.

ثانيها: اليقين الواثق، والصدق العابق مع الله، ثم مع الناس، ومع الآخرين.

ثالثها: الخضوع والخشوع، والتذلل والافتقار، والانطراح على أعتاب الجبّار.

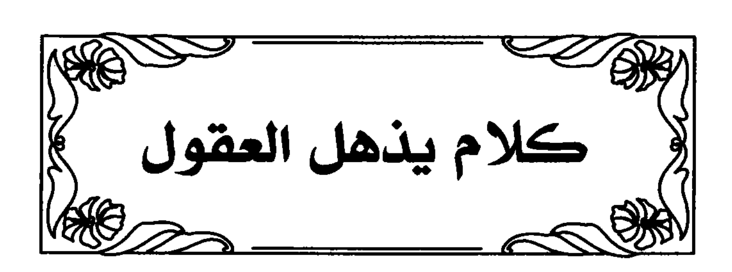
رابعها: سبر أغوار الوحي، والولوج إِلى أعماق النصوص، وتفتيق أكمامها، وتفجير أنهارها، واستخراج دررها وأصدافها، وكثرة قراءتها، وإِعمار الوقت بروعتها.

خامسها: المجافاة للدنيا، وعدم التلطخ بأوحالها، والتعلق بأذيالها.

سادسها: الحب الصادق، والتعلق الكبير بالواحد الأحد، حبٌّ ظهرت آثار قبول المحبوب له، ورضى المعبود عنه.

سابعها: كثرة الإِكثار من ذكر الحبيب، والترنم بتحميده، وتسبيحه، وتكبيره، وتهليله، والاشتغال بذلك عن كل شيء.

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد



ترجمة يحيى بن معاذ:

لم تذكر كتب التراجم تعريفاً شافياً كافياً عن يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ فهو لم ينل حظاً وافياً من العناية والترجمة، وما ورد من تعريف له، فهو عبارة عن نتف قصيرة في سطر أو سطرين أو ثلاثة، هذا ما وقفت عليه، فإن وُجد شيء غير ذلك فهو منية عظمى، وقد توفي في القرن الثالث الهجري (٢٥٨)هـ.

قال عنه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «حلية الأولياء»:

(المادح الشكّار، القانع الصبّار، الراجي الجآر، يحيى بن معاذ، الواعظ الذكّار، لزم الحداد توقّياً من العباد، واستلذ السهاد تحرّياً للوداد، واحتمل الشداد توصلاً إلى الفناد).

وقال عنه ابن الجوزي في كتابه «صفوة الصفوة»:

(نزيل الري، ثم انتقل إلى نيسابور، فسكنها، وبها مات، وكانوا ثلاثة إخوة: إسماعيل، ويحيى، وإبراهيم، فإسماعيل: أكبرهم سناً، ويحيى: أوسطهم، وإبراهيم: أصغرهم، وكانوا كلهم زهاداً).

وقال عنه ابن العماد في كتابه «شذرات الذهب»:

(يحيى بن معاذ الرازي، الزاهد العارف، حكيم زمانه، وواعظ عصره، توفي في نيسابور).

وقال عنه الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد».

(يحيى بن معاذ، أبو زكريا الرازي الواعظ، وكان قد انتقل عن الري، وسكن نيسابور إلى أن مات بها، وقد قدم بغداد، فاجتمع إليه النساك، ونصبوا له منصة، وأقعدوه عليها، وقعدوا بين يديه يتجارون).

وقال عنه الإمام الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء»:

(يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة).

وقال عنه الزركلي في كتابه «الأعلام»:

(يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، توفي عام **٢٥٨**هـ، واعظ زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الرّي، أقام ببلخ، ومات في نيسابور).

وقال عنه ابن خلكان في «وفيان الأعيان»:

(نسيجُ وَحْده في وقته، له لسان في الرجاء، خصوصاً، وكلام في المعرفة، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور ومات بها).

وقال عنه ابن الأثير في كتابه «الكامل»:

(وفيها ـ أي سنة **٢٥٨** ـ توفي يحيى بن معاذ الرازي الواعظ في جمادى الأولى، وكان عابداً صالحاً).

وقال عنه ابن الملقّن في كتابه «طبقات الأولياء»:

(يحيى بن معاذ الرازي الواعظ أبو زكريا، أحد الأوتاد، وكان أوحد وقته في فنّه، مات سنة ثمان وخمسين ومائتين).

أيها الأحبة افتحوا منافذ قلوبكم، فأنتم الآن على موعد مع الإمام الرباني: يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ:

يا ليته لم يكن في اللوح مسطورا ذنب على عبده قد كان مقدورا

كيف النجاة بعبد أنت خالقه ماذا تريد به يا رب مفطورا
يا ويحه يوم يستدعي صحائفه إليك من خمدة الأموات منشورا

❁ ❁ ❁

أنا مشغول بذنبي يا رجل كف عني إن قلبي في شغل
كيف أرجو توبة تدركني وأرى قلبي بويلي يشتغل
ذهبت نفسي بلا شك على أنني أدفع دهري بالعلل

❁ ❁ ❁

لست أبكي على نفسي إِن ماتت، إِنما أبكي على حاجتي إن فاتت.

❁ ❁ ❁

كيف أمتنع بالذنب من رجائك، ولا أراك تمتنع للذنب من عطائك.

❁ ❁ ❁

إِن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإِن أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة.

❁ ❁ ❁

مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

❁ ❁ ❁

يا ابن آدم لا يزال دينك متمزقاً ما دام القلب بحب الدنيا متعلقاً.

❁ ❁ ❁

ما ركن إِلى الدنيا أحد إِلا لزمه عيب القلوب، ولا مكن الدنيا من نفسه أحد إِلا وقع في بحر الذنوب.

❁ ❁ ❁

ورأى يوماً رجلاً يقلع الجبل في يوم حار، وهو يغني، فقال: مسكين ابن آدم قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار.

❁ ❁ ❁

من لم يرض عن الله في الممنوع، لم يسلم من الممنوع.

❁ ❁ ❁

طلبوا الزهد في بطن الكتب، وإنما هو في بطن التوكل، لو كانوا يعلمون.

❁ ❁ ❁

ونظر يوماً إلى إنسان، وهو يقبل ولداً له صغيراً فقال: أتحبه؟ قال: نعم، قال: هذا حبك له إذ ولدته، فكيف بحب الله له إذ خلقه؟

❁ ❁ ❁

سَبَحُوا في بحار البلايا حتى جاوزوها إلى العطايا، ثم سبحوا في بحار العطايا حتى جاوزوها إلى رب البرايا.

❁ ❁ ❁

من أشخص بقلبه إلى الله، انفتحت ينابيع الحكمة في قلبه، وجرت على لسانه.

❁ ❁ ❁

قد غرق في بلائه، وهو يريد أن ينجو من ربه بصفائه.

❁ ❁ ❁

أنا في نصب المنابر وتعبية العساكر والناس لا يعلمون.

❁ ❁ ❁

لا يفلح من شُمَّتْ منه رائحة الرياسة.

❁ ❁ ❁

جماع الأمر كله في شيئين: سكون القلب على رزق هذه الناحية [يعني: الدنيا]، والاجتهاد في طلب رزق تلك الناحية [يعني: الآخرة].

❁ ❁ ❁

لا تستبطىء الإِجابة وقد سددت طرقاتها بالذنوب.

❁ ❁ ❁

اترك الدنيا قبل أن تُترك، واسترض ربك قبل ملاقاته، واعمر بيتك الذي تسكنه قبل انتقالك إِليه - يعني القبر -.

❁ ❁ ❁

إِنما ينبسطون إِليه على قدر منازلهم لديه.

❁ ❁ ❁

من كان قلبه مع الحسنات، لم تضره السيئات، ومن كان مع السيئات، لم تنفعه الحسنات.

❁ ❁ ❁

لو رأت العقول بعيون الإِيمان نزهة الجنة لذابت النفوس شوقاً، ولو أدركت القلوب كنه هذه المحبة لخالقها، لانخلعت مفاصلها إِليه ولها عليه، ولطارت الأرواح إِليه من أبدانها دهشاً، فسبحان من أغفل الخليقة عن كنه هذه الأشياء، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأشياء.

❁ ❁ ❁

لا تطلب العلم رياءً، ولا تتركه حياءً.

❁ ❁ ❁

أعظم المصيبة على الحكيم في اليوم أن يمضي عنه لا يأتيه فيه هدية من ربه - يعني حكمة جديدة -.

❁ ❁ ❁

الدنيا أميرُ من طلبها، وخادمُ من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها، ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، الدنيا عروس وطالبها ماشِطَتُها، وبالزهد يُنتف شعرها، ويُسَوّد وجهها، وتُمزّق ثيابها. ومن طلق الدنيا، فالآخرة زوجته، فالدنيا مطلقة الأكياس، لا تنقضي عدتها أبداً، فخل الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها، وخذ من الدنيا ما يبلغك الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة.

❁ ❁ ❁

تمام المغفرة في ثلاث: حسن القبول، وتقييد العلم، وبذل الفضل، وتفسير حسن القبول: أن تسمع بنية الاستفادة، وتنظر الإرادة، لا تهز رأسك كأنك عالم بما تسمعه، فهذا يُدخل في الكبر، ويفسد العمل.

❁ ❁ ❁

عُدِم التواضع من فاته خصال: عِلْمُه بما خُلق له، وما خلق منه، وما يعود إليه.

❁ ❁ ❁

علامة من اتقى الله ثلاثة خصال: من آثر رضاه، وقارن تقاه، وخالف هواه ـ يعني: رضى الله على رضى نفسه، وقارن تقاه: يعني: جعل التقى قرينه، فلا يزايله في حال عسره، ويسره، وسروره، ورضاه، وغضبه، وخالف هواه: يعني: فيما يبعده عن الله وينقصه حظ الجزاء ـ.

۞ ۞ ۞

التائب يبكيه ذنبه، والزاهد تبكيه غربته، والصِّدِّيق يبكيه خوف زوال الإِيمان.

۞ ۞ ۞

فكرتك في الدنيا تلهيك عن ربك وعن دينك، فكيف إِذا باشرتها بجميع جوارحك.

۞ ۞ ۞

اتق على جِراب إِيمانك لا يقرضه الفأر.

۞ ۞ ۞

إِلهي، ضَمِّن أعمالي غَنيمةَ عقباها، وامنع نفسي لذاذة دينها.

۞ ۞ ۞

سبحان من يبيع الحبيبة بالبغيضة ـ يعني الدنيا ـ.

۞ ۞ ۞

الجنة حبيبة المؤمن، يبيعها منه بالبغيضة.

۞ ۞ ۞

ربما رأيت أحدهم يقول: عشرين سنة أطلب ربي، ويحك، اطلب نفسك حتى تجدها، فإِذا وجدتها فقد وجدت ربك.

۞ ۞ ۞

الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وهو لا يسألك منها جناح بعوضة.

❁ ❁ ❁

أيها المريدون، طريق الآخرة والصدق، والطالبون أسباب العبادة والزهد، اعلموا أنه من لم يحسن عقله، لم يحسن تعبد ربه، ومن لم يعرف آفة العمل، لم يحسن أن يحترز منه، ومن لم تصح عنايته في طلب الشيء، لم ينتفع به إذا وجده، واعلموا، أنكم خلقتم لأمر عظيم، وخطر جسيم، وأن العلم لم يُرد ليُعلم، إنما أريد ليُعْلَم ويُعمل به؛ لأن الثواب على العمل بالعلم يقع، لا على العلم، ألا ترى أن العلم إذا لم يُعمل به عاد وبالاً وحجة؟ وانظروا ألا تكونوا معشر المريدين ممن قد تركوا لذة الدنيا ونَعيمها، ثم لا يصدق طلبكم الآخرة فلا دنيا ولا آخرة، وفكروا فيما تطلبون، فإن من لم يعرف خطر ما يطلب لم يسهل عليه الجهل في جنب طلبه، واعلموا أنه من لم يهن عليه الخلق لم يعظم عليه الرب، ومن لم يكن طلبه في طريق الرغبة والرهبة والشوق والمحبة كان متحيراً في طلبه مخلطاً في عمله، لا يجد لذة العبادة، ولا يقطع طريق الزهادة، فاتقوا الله الذي إليه معادكم، وانظروا ألا تكونوا ممن يعرفهم جيرانهم وإخوانهم بالخير والإرادة والزهادة والعبادة، وحالكم عند الله على خلاف ذلك، فإن الله إنما يجزيكم على ما يعرف منكم لا على ما يعرفه الناس، ولا تكونوا ممن يولع بصلاح الظاهر الذي إنما هو للخلق، ولا ثواب له بل عليه العقاب، ويدع الباطن الذي هو لله، وله الثواب، ولا عقاب لله عليه.

❁ ❁ ❁

من الدنيا لا ندرك آمالنا، وللآخرة لا نقدم أعمالنا، وفي القيامة غداً لا ندري ما حالنا!!

❁ ❁ ❁

الناس ثلاثة: فرجل شغله معاده عن معاشه فتلك درجة الصالحين، ورجل شغله معاشه لمعاده فتلك درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه عن معاده فتلك درجة الهالكين.

❁ ❁ ❁

لا تسكن إلى نفسك، وإن دعتك إلى الرغائب.

❁ ❁ ❁

الدنيا بحر التلف، والنجاة منها: الزهد فيها.

❁ ❁ ❁

يا جهول، يا غفول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لَمتَّ طرباً.

❁ ❁ ❁

استشعرتَ الفقر فاتهمتَه، ووثقتَ بعبد مثلك فقير فأتمنته، ثم صرخ وقال: واسوأتاه منك إذا شاهدتني، وهمتي تسبق إلى سواك، أم كيف لا أضنى في طلب رضاك.

❁ ❁ ❁

قلب المحب يهم بالطيران، وتَكْلُمه لدغات الشوق والخفقان.

❁ ❁ ❁

إلهي، إن كانت ذنوب عظمت في جنب نهيك فإنها قد صغرت في جنب عفوك، إلهي، لا أقول لا أعود لما أعرف من خلقي وضعفي، إلهي، إنك إن أحببتني غفرت سيئاتي، وإن مقتَّني لم تقبل حسناتي، ثم قال: أواه قبل استحقاق قول أواه.

❁ ❁ ❁

لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب بها الدنيا، ولكن اجعلها عبادتك لتنال بها الآخرة، وإذا شكرك أبناء الدنيا، ومدحوك، فاصرف أمرهم على الخرافات.

❁ ❁ ❁

ترى الخلق متعلقين بالأسباب، والعارف متعلق بولي الأسباب، إنما حديثه عن عظمة الله، وقدرته، وكرمه، ورحمته، يحترف بهذا دهره، ويدخل به قبره.

❁ ❁ ❁

من كانت الحياة قيده، كان طلاقه منها: موته.

❁ ❁ ❁

الدنيا لا قدر لها عند ربها، وهي له، فما ينبغي أن يكون قدرها عندك وليست لك.

❁ ❁ ❁

وسُئل عن الوسوسة: فقال: إن كانت الدنيا سجنك، كان جسدك لها سجناً، وإن كانت الدنيا روضتك، كان جسدك لها بستاناً.

❁ ❁ ❁

وقيل له: كيف يتعبد الرجل من غير بضاعة تعينه على العبادة؟ قال: أولئك بضاعتهم مولاهم، وزادهم تقواهم، وشغلهم ذكراهم، ومن اهتم بعشائه لم يتهن بغدائه، ومن أراد تسكين قلبه بشيء دون مولاه لم يزد استكثاره من ذلك إلا اضطراباً.

❁ ❁ ❁

لو لم يكن للعارفين إلا هاتان النعمتان لكفاهم مِنَّة: متى رجعوا إليه وجدوه، ومتى ما شاؤوا ذكروه.

❁ ❁ ❁

عبادة العارف في ثلاثة أشياء: معاشرة الخلق بالجميل، وإدامة الذكر للجليل، وصحة جسمٍ بين جنبيه قلبٌ عليل.

❁ ❁ ❁

سبحان من طيب الدنيا للعارفين بمعرفته، وسبحان من طيب لهم الآخرة بمغفرته، فتلذذوا أيام الحياة بالذكر في مجالس معرفته، وغداً يتلذذون في رياض القدس بشراب مغفرته، فلهم في الدنيا زرعُ ذِكْر، ولهم في الآخرة ربيع بِرْ، ساروا على المطايا من شُكْرِه حتى وصلوا إِلى العطايا من ذُخرِه، فإِنه ملك كريم.

❁ ❁ ❁

العارف قد يشتغل بربه عن مفاخرة الأشكال، ومجالس العطايا، وعن منازعة الأضداد في مجالس البلايا.

❁ ❁ ❁

أوثق الرجاء رجاء العبد ربه، وأصدق الظنون حسن الظن بالله.

❁ ❁ ❁

طوبى لعبد أصبحت العبادة حرفته، والفقر مُنْيته، والعزلة شهوته، والآخرة هِمَّته، وطلب العيش بُلْغَتُه، وجعل الموت فكرته، وشغل بالزهد نيته، وأمات بالذل عزته، وجعل إِلى الرب حاجته، يذكر في الخلوات خطيئته، وأرسل على الوجنة عبرته، وشكى إِلى الله غربته، وسأله بالتوبة رحمته.

طوبى لمن كان ذلك صفته، وعلى الذنوب ندامته، جأر الليل والنهار، وبكاء إِلى الله بالأسحار، يناجي الرحمٰن، ويطلب الجنان، ويخاف النيران.

❁ ❁ ❁

الكيّس من فيه ثلاثة خصال: من بادر بعمله، وتسوف بأمله، واستعد لأجله.

❁ ❁ ❁

المغبون يوم القيامة من فيه ثلاث خصال: من قرض أيامه بالبَطَالات، وبسط جوارحه على الحسرات، ومات قبل إِفاقته من السكرات.

۞ ۞ ۞

إن العبد على قدر حبه لمولاه يُحَبِّبه إِلى خلقه، وعلى قدر توقيره لأمره يوقره خلقه، وعلى قدر التشاغل منه بأمره يشغل به خلقه، وعلى قدر سكون قلبه على وعده يطيب له عيشه، وعلى قدر إِدامته لطاعته يحليها في صدره، وعلى قدره لهجته بذكره يديم ألطاف بره، وعلى قد استيحاشه من خلقه يؤنسه بعطائه، فلو لم يكن لابن آدم الثواب على عمله إِلا ما عُجِّل له في دنياه، لكان كثيراً سوى ما يريد أن يصير إِليه من جزيل جزائه، وعظيم عطائه ما لا يحيط به إِحصاء، ولا تبلغه مُنىً؛ إِذ كان يعطي على قدر ما هو أهله، إِنه ملك كريم.

۞ ۞ ۞

من سعادة المرء: أن لا يكون لخصمه فهماً، وخصمي لا فهم له، قيل له: من خصمك؟ قال: خصمي نفسي، لا فهم لها؛ تبيع الجنة بما فيها من النعيم المقيم، والخلود فيها، بشهوة ساعة في دار الدنيا.

۞ ۞ ۞

لا تعرفه حتى تعمى عن الخلق.

۞ ۞ ۞

يا ابن آدم، إِنك لا تشتاق إِلى ربك، إِلا بالاستيحاش من خلقه.

۞ ۞ ۞

للتائب فخر لا يعادله فخر في جميع أفخاره: فرح الله بتوبته.

❁ ❁ ❁

إذا اصطفاهم لنفسه، وأمكنهم من أنسه، حجبهم عن خلقه بالمعروف من رفقه، قيل له: وكيف يحجبهم؟ قال: يحجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا.

❁ ❁ ❁

مجِّدْ إلهك (يَحيى) إنه مَلِك ... مهيمن صمد للذنب غفار
اشكر له حِكَماً آتاكها مِنناً ... تترى توافقها في الدين آثار

❁ ❁ ❁

لو لم يُسكِّنهم ببَلْواه لطارت بهم نُعماه، ولم يصل إليه من لم يرض بقسمه، ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه، ولم يحبه من لم يَتُهْ في كرمه.

❁ ❁ ❁

حين خاطروا بالنفوس اقتربوا، وهذا طعم الخبز فكيف طعم النظر.

❁ ❁ ❁

أفواه الرجال حوانيتها، وشفتاها مغاليقها، وأسنانها مخاليبها، فإذا فتح الرجل باب حانوته تبين لك العطار من البيطار.

❁ ❁ ❁

قد دعاك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ أمن الدنيا أم من قبرك؟ إنك إن أجبته من دنياك دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها.

❁ ❁ ❁

إن الدرهم عقرب، فإن لم تُحسن رُقْيته، فلا تأخذه بيدك، فإنه إن لدغك قتلك.

❁ ❁ ❁

الدنيا سُمُّ الله القَتَّال لعباده، فخذوا منها حسب ما يؤخذ السم في الأدوية لعلكم تسلمون.

❁ ❁ ❁

أولياؤه أُسَراءُ نعمه، وأصفياؤه رهائن كرمه، وأحباؤه عبيد مننه، فهم عبيد محبة لا يُعتقون، ورهائن كرم لا يفكون، وأسراء نعم لا يطلقون.

❁ ❁ ❁

أهل المعرفة وحش الله في الأرض لا يأنسون إِلى أحد، والزاهدون غرباء في الدنيا، والعارفون غرباء في الآخرة.

❁ ❁ ❁

ابن آدم، ما لك تأسف على مفقود لا يرده عليك الغوث؟ وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت؟

❁ ❁ ❁

عجبت لمن يصبر عن ذكر الله، وأعجب منه من صبر عليه كيف لا ينقطع؟ ثم قال:

ندافع عيشنا بالجهد جهداً
مدافعة إِلى جهد المنايا

❁ ❁ ❁

سبحان من جعل الأرواح روحانية نورانية، والأنفاس جولانية هوائية، فالأرواح تحن إِلى عليين معادنها، والأنفاس تحن إِلى سجين محبسها.

❁ ❁ ❁

قوم على فرش من الذكر في مجلس من الشوق، وبساتين من المناجاة بين رياض الأطراب، وقصور الهيبة، وفناء مجال الأنس، مُعانقي عرائس الحكمة بصدور الأفهام، يتعاطون بينهم كؤوس حُبِّه تجري في الأكباد تديم عليهم ذكر الحبيب، ويبلبلهم معها هيمان الوجود.

❁ ❁ ❁

طَربُ الحُبِّ على الحبّ ... مع الحُب يدوم
عجباً يا من رأيناه ... على الحب يلوم
حول حب الله ما عشتُ ... مع الشوق أحوم
وبه أقعدُ ما عشت ... حياتي وأقوم

❁ ❁ ❁

نفس المحب إلى الحبيب تطلَّعُ ... وفؤاده من حبه يتقطَّعُ
عِزُّ الحبيب إذا خلا في ليله ... بحبيبه يشكو إليه ويضرع
ويقوم في المحراب يشكو بثه ... والقلب منه إلى المحبة ينزع

❁ ❁ ❁

أموت بدائي لا أصيب دوائيا ... ولا فرجاً مما أرى من بلائيا
إذا كان داء العبد حب مليكه ... فمن دونه يرجو طبيباً مداويا

❁ ❁ ❁

رضيت بسيدي عوضاً وأنساً ... من الأشياء لا أبغي سواه
فيا شوقاً إلى ملك يراني ... على ما كنت فيه ولا أراه

❁ ❁ ❁

أنا إن تبتُ مناني ... وإن أذنبت رجّاني
وإن أدبرت ناداني ... وإن أقبلت أدناني

وإن أحــــبــــبــــت والانــــي ... وإن أخــلــصــت نــاجــانــي
وإن قــصّــرت عــافــانــي ... وإن أحــســنــت جــازانــي
حــبــيــبــي أنــت رحــمــانــي ... فــفــرِّج كــل أحــزانــي
إلــيــك الــشــوق مــن قــلــبــي ... عــلــى ســري وإعــلانــي
فــيــا أكــرم مــن يُــرجــى ... ويــا قــديــم إحــســانــي
ومــا كــنــت عــلــى هــذا ... إلــه الــنــاس تــنــســانــي
لــدى الــدنــيــا وفــي الــعــقــبــى ... عــلــى مــا كــان مــن شــانــي

۞ ۞ ۞

تبارك ذو الجلال وذو المحال ... عزيز الشان محمود الفعال
سروري بالسؤال لكي أراه ... فكيف أُسر منه بالنوال
فياذا العز يا ذا الجود جُدْ لي ... وغيِّر ما ترى من سوء حالي

۞ ۞ ۞

أشكو إليك ذنوباً لست أنكرها ... وقد رجوتك يا ذا المنِّ تغفرها
من قبل سؤلك لي في الحشر يا أملي ... يوم الجزاء على الأهوال تذكرها
أرجوك تغفرها في الحشر يا أملي ... إذ كنت سؤلي كما في الأرض تستترها

۞ ۞ ۞

سلم على الخلق وارحل نحو مولاك ... واهجر الصدق والإخلاص دنياك
عساك في الحشر تُعطى ما تؤمله ... ويكرم الله ذو الآلاء مثواك

۞ ۞ ۞

القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها، فانتظرِ الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه اغترافُ لسانه.

۞ ۞ ۞

إنما صار الفقراء أسعد على الذكر من الأغنياء، لأنهم في حبس الله، ولو أطلقوا من حصار الفقر لوجدت من ثبت منهم على الذكر قليلاً.

❁ ❁ ❁

ألق حسن الظن على الخلق، وسوء الظن على نفسك، لتكون من الأول في سلامة، ومن الآخر على الزيادة.

❁ ❁ ❁

أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام، وأبناء الآخرة يجدون لذة المعاني.

❁ ❁ ❁

الدرجات التي يسعى إليها أبناء الآخرة سبعة: التوبة، ثم الزهد، ثم الرضا، ثم الخوف، ثم الشوق، ثم المحبة، ثم المعرفة، فبالتوبة تطهروا من الذنوب، وبالزهد خرجوا من الدنيا، وبالرضا ألبسوا فراطن العبودية، وبالخوف جازوا قناطر النار، وبالشوق إلى الجنة استوجبوها، وبالمحبة عقلوا النعيم، وبالمعرفة وصلوا إلى الله.

❁ ❁ ❁

الدنيا خزانة الله، فما الذي يُبغض منها، وكل شيء من حجر أو مدر أو شجر يسبح الله فيها، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، فالمجيب له بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضاً في قلوب المؤمنين، ليعلم أن الذنب والذم زائدان عنها إلى بني آدم، لو كانوا يعلمون.

❁ ❁ ❁

اعلموا أنه لا يصح الزهد، والعبادة، ولا شيء من أمور الطاعة لرجل أبداً، وفيه للطمع بقية، فإن أردتم الوصول إلى محض الزهد والعبادة، فأخرجوا من قلوبكم هذه الخصلة الواحدة، وكونوا، رحمكم الله، من أبناء الآخرة، وتعاونوا واصبروا وأبشروا، تظفروا، إن شاء الله، واعلموا: أن ترك الدنيا هو الربح نفسه، الذي ليس بعده أمر أشد منه، فإن ذبحتم بتركها نفوسكم أحييتموها، وإن أحييتم أنفسكم بأخذها قتلتموها، فارفضوها من قلوبكم تصيروا إلى الروح لراحة في الدنيا والآخرة، وتصيبوا شرف الدنيا والآخرة، وعيش الدنيا والآخرة، إن كنتم تعلمون، عذبوا أنفسكم في طاعة الله بترك شهواتها قبل أن تلقى الشهوة منها أجسامكم في دبار عاقبتها، واعلموا: أن القرآن قد ندبكم إلى وليمة الجنة، ودعاكم إليها، فأسرع الناس إليها أتركُهم لدنياه، وأوجدُهم لذة لطعم تلك الوليمة أشدهم تجويعاً لنفسه، ومخالفةً لها، فإنه ليس أمر من أمور الطاعة إلا وأنتم تحتاجون أن تخرجوه من بين ضدين مختلفين بجهدٍ شديد، وسأظهر لكم هذا الأمر: فإني وجدت أمر الإنسان أمراً عجيباً، قد كُلِّف الطاعة على خلاف ما كُلِّف سائر الخلق من أهل الأرض والسماء فأحسن النظر فيه، وليكن العمل منك فيه على حسب الحاجة منك إليه، واستعن بالله فنعم المعين، واعلم أنك لم تسكن الدنيا لتتنعم فيها جاهلاً، وعن الآخرة غافلاً، ولكنك أسكنتها لتتعبد فيها عاقلاً، وتمتطي الأيام إلى ربك عاملاً، فإنك بين دنيا وآخرة، ولكل واحدة منهما نعيم، وفي وجود أحدهما بطول الآخر، فانظر أن تحسن طلب النعيم، فقد حكي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: غلط الملوك طلبوا النعيم فلم يحسنوا، وعلى حسب اقتراب قلبك من الدنيا يكون بعدك من الله، وعلى حسب بعد قلبك من الدنيا يكون قربك من الله، وكما كان معدوماً: وجود نفسك في مكانين، فكذلك معدوم: وجود قلبك في دارين، فإن كنت ذا قلبين فدونك؛ اجعل أحدهما للدنيا، وأحدهما للآخرة، وإن كنت ذا قلب واحدٍ فاجعله لأوْلى الدارين

بالنعيم والمقام والبقاء والإنعام، واعلم: أن النفس والهوى لا يقهران بشيء أفضل من الصوم الدائم، وهو: بساط العبادة، ومفتاح الزهد، وطلع ثمرات الخير، وأجساد العمال من شجراته دائم الجذاذ، دائم الإطعام، وهو الطريق إلى مرتبة الصديقين، وما دونه فمزرعة الأعمال، فثمر غرسها وربيع بذرها في تركها، وفقدها في أخذها، وليس معنى الترك: الخروج من المال والأهل والولد، ولكن معنى الترك: العمل بطاعة الله، وإيثار ما عند الله عليها مأخوذة متروكة، فهذا معنى الترك، لا ما يدعيه المتصوفة الجاهلون، أنت من الدنيا بين منزلتين، فإن زويت عنك كفيت المؤنة، وإن صرفت إليك ألزمتها طاعة مولاك، وإن كانت طاعتك لله في شأنها تصلحها، ومعصيتك لله في أمرها يفسدها، فدع عنك لوم الدنيا واحفظ من نفسك وعملك ما فيه صلاحها، فإن المطيع فيها محمود عند الله، إنما تلزمه التهمة وعيب الأخذ لها إذا خان الله فيها، لأن الدنيا مال الله، والخلق عباد الله، وهم في هذا المال صنفان: خونة وأمناء، فإذا وقع المال في أيدي الخائنين فهو سبب دمارهم ولا عتب على المال إنما العتب على فعلهم بالمال، وإذا وقع في أيدي الأمناء كان سبب شرفهم وخلاصهم، ولا معنى للمال إنما كسب لهم الشرف عند الله فعلهم بالمال، أدوا أمانة الله في أموالهم فلحق بهم نفع المال، لا ذنب للمال الذنب لك، الذنوب إنما تكتسب بالجوارح، وليس للضيعة والحانوت جوارح، إنما الجوارح لك، وبها تكتسب الذنوب، فعلك بما لك أسقطك من عين ربك لا مالك، وفعلك بمالك يصحبك إلى قبرك لا مالك، وفعلك بمالك يوزن يوم القيامة لا مالك.

❁ ❁ ❁

يا من أقام لي غرس ذكرى، وأجرى إلى أنهار نجوى، وجعل لي أيام عيد في اجتماع الورى، وأقام لي فيهم أسواق تقوى، أقبلت إليك معتمداً عليك ممتلىء القلب من رجائك، ورطب اللسان من دعائك، في

قلبي من الذنوب زفرات، ومعي عليها ندامات، إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني دعوت، وإن دعوتني أجبت، فأعطني إلهي ما أريد، فإن لم تعطني ما أريد فصبّرني على ما تريد.

❁ ❁ ❁

من أكثر ذكر الموت لم يمت قبل أجله، ويدخل عليه ثلاث خصال من الخير: أولها: المبادرة إلى التوبة، والثاني: القناعة برزق يسير، والثالث: النشاط في العبادة، ومن حرص على الدنيا فإنه لا يأكل فوق ما كتب الله له، ويدخل عليه من العيوب ثلاث خصال: أولها: أن تراه أبداً غير شاكر لعطية الله له، والثاني: لا يواسى بشيء مما قد أعطي من الدنيا، والثالث: يشتغل ويتعب في طلب ما لم يرزقه الله حتى يفوته عمل الدين.

❁ ❁ ❁

الصبر على الناس أشد من الصبر على النار.

❁ ❁ ❁

تأبى القلوب للأسخياء إلا حباً وإن كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغضاً وإن كانوا أبراراً.

❁ ❁ ❁

ليس على وجه الأرض أحد إلا وفيه فقر وحرص، ولكن من أخلاق المؤمنين: أن يكونوا حرصاء على طلب الجنة، فقراء إلى ربهم، والمنافق: حريص على الدنيا، فقير إلى الخلق.

❁ ❁ ❁

قال بعض الحكماء: من أصبح لم يكن معه هذه خصال الثلاث لم يصب طريق العزم: أولها: كما أن الله لم يعط رزقك اليوم غيرك فلا تعمل لغيره، وكما أن الله لم يشارك فيما أعطاك أحداً فلا تشارك

في العمل الذي تعمل له ـ يعني الرياء ـ وكما أن الله لم يكلفك اليوم عمل غد فلا تسأله رزق غد على جور حتى إذا لم يعطك شكوته.

❁ ❁ ❁

إذا لاحظت الأشياء منه كان لها طعم آخر.

❁ ❁ ❁

ليس بصادق من ادعى حبه ولم يحفظ حده.

❁ ❁ ❁

سقوط رجل من درجةٍ: ادعاؤها.

❁ ❁ ❁

إذا عملوا على الصدق انطلقت ألسنتهم على الخلق بالشدة، وإذا عملوا في التفويض انكسرت ألسنتهم عن الخلق مبهوتين، الأول من صفة الزاهدين، والثاني من صفة العارفين.

❁ ❁ ❁

إنما تلقى الزاهد في الدنيا أحياناً ليرفق بعباد الله إذا ذلوا.

❁ ❁ ❁

من أقام قلبه عند الله سكن، ومن أرسله في الناس اضطرب.

❁ ❁ ❁

قسم الدنيا على البلوى، والجنة على التقوى، وجوع التوابين تجربة، وجوع الزاهدين سياسة، وجوع الصديقين تكرمة، والجوع طعم يشبع الله منه أبدان الصديقين، وإذا امتلأت المعدة خرست الحكمة، وأشرف الجوع حالة ينظر إليك فيها العدو فيرحمك، وأمقت الشبع حالة ينظر إليك معها الصديق فيستثقلك، فالحزن يمنع الطعام،

والخوف يمنع الذنوب، والرجاء يقوي على أداء الفرائض، وذكر الموت يزهد في الشيء، وصلاح الأمر في ذلك كله أن يكون على نية.

❁ ❁ ❁

تولد الخوف في القلب من ثلاث الخصال: إِدامة الفكر معتبراً، والشوق إِلى الجنة مشفقاً، وذكر النار متخوفاً، والورع من ثلاث خصال: من عز النفس، وصحة اليقين، وتوقع الموت، وتمام المعرفة من ثلاث خصال: حسن القبول، وتقليد العلم، وبذل النصح.

❁ ❁ ❁

لا تتخذوا من القرناء إِلا ما فيه ثلاث خصال: من حذَّرك غوائل الذنوب، وعَرَّفك مدانس العيوب، وسايرك إِلى علام الغيوب.

❁ ❁ ❁

شرف المعاد من ثلاث: احتمال الشدائد، وإِذلال النفس، وكراهة المعرفة، ومعنى كراهة المعرفة: يكره أن يُعْرَف في الناس لا يبتغي معرفة الناس، إِنما استئناسه بذكر الله في الخلوة ومع الناس.

❁ ❁ ❁

غنيمة الآخرة في ثلاثة أشياء: الطاعة، والبر، والعصيان، طاعة الرب، وبر الوالدين، وعصيان الشيطان.

❁ ❁ ❁

الفارس في الدين من كان فيه ثلاث خصال: حفظ لسانه، وإِمساك عنانه، وصدق بيانه، حفظ لسانه: لا يتكلم إِلا بماله، وإِمساك عنانه: وهو في حلبة الأعمال، فيمسك عنان إِرادته إِذا كان لغير الله، ويرسله إِذا كان لله، وصدق بيانه: إِذا علم شيئاً عمل به، وثلاثة من

السعادة: مقلة دامعة، وعنق خاضعة، وأذن سامعة، وأغبط الناس من سلك طريق آخرته، وأصلح شأن عاقبته، واجتهد في فكاك رقبته.

❁ ❁ ❁

لم أجد السرور إلا في ثلاث خصال: التنعم بذكر الله، واليأس من عباد الله، والطمأنينة إلى موعود الله - يعني الرزق -.

❁ ❁ ❁

عجبت لثلاث، وفرحت لثلاث، واغتممت لثلاث: فالتي عجبت منها: فتنة العالم، وسرور الإنسان بما أصاب من الدنيا، وهو تراث من تقدمه، وتراث من يخلفه يسلبه، ثم يؤخذ بحسابه، ومن رقع في أفواه أمانيه في مراتع الموت، وفرحت لثلاث: إظهار الله آدم على إبليس، وهذا ملك وهذا بشر، وإخراجه إيانا في هذه الأمة، والخصلة الثالثة وهي أشرف الثلاث: معرفة الله تعالى، واغتممت لثلاث: لذنوب أسلفتها، وأيام ضيعتها، والخصلة الثالثة وفيها الخطر العظيم: وقوفي بين يدي الله عز وجل لا أدري ما يبدو لي منه، وذلك المقام الشديد يتوقع فيها المحاسب بماذا يختم له أيام ضيعها - يعني في الغفلة وترك الاستعداد.

❁ ❁ ❁

من لم يكن ظاهره مع العوام فِضَّة، ومع المريدين ذهباً، ومع العارفين المقربين دُرّاً وياقوتاً، فليس من حكماء الله المريدين.

❁ ❁ ❁

أحسن شيء: كلام صحيح، من لسان فصيح، في وجه صبيح، كلام رقيق، يستخرج من بحر عميق، على لسان رجل رفيق.

❁ ❁ ❁

الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام معناه، وأحسن من معناه استعماله، وأحسن من استعماله ثوابه، وأحسن من ثوابه رضى من يُعْمَل له.

۞ ۞ ۞

إِلٰهي، حجتي حاجتي، وعُدَّتي فاقتي، وسبيلي إِليك نعمتك عليّ، وشفيعي لديك إِحسانك إِليّ.

۞ ۞ ۞

إِلٰهي، أعلم أن لا سبيل إِليك إِلا بفضلك، ولا انقطاع عنك إِلا بعدلك.

إِلٰهي، كيف أنساك وليس لي رب سواك؟

إِلٰهي، لا أقول: لا أعود، لا أعود، لأني أعرف من نفسي نقض العهود، لكني أقول: لا أعود، لعلي أموت قبل أن أعود.

۞ ۞ ۞

ما صحَّت إِرادة رجل قط. فمات، حتى حن إِلى الموت، واشتهاه اشتهاء الجائع الطعام، لارتداف الآفات، واستيحاشه من الأهل والإِخوان، ووقوعه فيما يتحير في صريح عقله.

۞ ۞ ۞

كل مريد لم يحول نفسه عن لذاذة الدنيا، فقد صار ضحكة للشيطان، وعجبت من قوم باعوا ربهم بشهوات أنفسهم، ورفضوا آخرتهم بدنياهم، وطرحوا دينهم، ورفعوا طينهم، كلاب الأماني كأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب.

۞ ۞ ۞

ما بَعُدَ طريقٌ إلى صديق، ولا استوحش في طريق من سلك فيه إلى حبيب.

❁ ❁ ❁

طبيب المحب حبيب، هو أرفق به من كل طبيب.

❁ ❁ ❁

حبك للحبيب يذللك، وحبه لك يدللك.

❁ ❁ ❁

لو أن مؤمناً مات من حب ملك أو نبي لم يكن عجباً منه، فكيف من حب الله؟

❁ ❁ ❁

العيش في حبه أعجب من الموت في حبه.

❁ ❁ ❁

مسكين ابن آدم، لو خاف الناس كما يخاف الفقر دخل الجنة.

❁ ❁ ❁

من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار، وُكل إلى المخلوقين.

❁ ❁ ❁

العبادة حرفة، وحوانيتها الخلوة، وآلاتها المخادعة، ورأس مالها الاجتهاد بالسنة، وربحها الجنة.

❁ ❁ ❁

الصبر على الخلوة من علامات الإِخلاص.

❁ ❁ ❁

الدُّنيا دار الأشغال، والآخرة دار الأهوال، ولا يزال العبد متردداً بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار، إِما إِلى جنّة وإِما إِلى نار.

❁ ❁ ❁

الذي حجب الناس عن التوبة: طول الأمل، وعلامة التائب إِسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة.

❁ ❁ ❁

اللهم لا تجعلنا ممن يدعو إِليك بالأبدان، ويهرب منك بالقلوب، يا أكرم الأشياء علينا لا تجعلنا أهون الأشياء عليك.

❁ ❁ ❁

عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب، هيهات أنت سكران بغير شراب ما أجملك لو بادرت أملك، ما أجلَّك لو بادرت أجلك، ما أقواك لو خالفت هواك.

❁ ❁ ❁

كيف أمتنع بالذنب من الدعاء، ولا أراك تمتنع بذنبي من العطاء.

❁ ❁ ❁

ذنب أفتقر به إِليه أحب إِليّ من طاعة أفتخر بها عليه.

❁ ❁ ❁

ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

❁ ❁ ❁

على قناطر الفتن جازوا إلى خزائن المنن.

❁ ❁ ❁

إلٰهي، كيف أفرح وقد عصيتك، وكيف لا أفرح وقد عرفتك، وكيف أدعوك وأنا خاطىء، وكيف لا أدعوك وأنت كريم.

❁ ❁ ❁

ليكن بيتك الخلوة، وطعامك الجوع، وحديثك المناجاة، فإما أن تموت بدائك أو تصل إلى دوائك.

❁ ❁ ❁

مصيبتان للمرء لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

❁ ❁ ❁

الكيّس من عمال الله يلهج بتقويم الفرائض، والجاهل يُغْنى بطلب الفضائل وتقويم الأعمال في تصحيح العزائم.

❁ ❁ ❁

هلم يا ابن آدم، إلى دخول جوار الله تعالى، لا عمل، ولا نصب، ولا عناء، أنا بين ما مضى من عمرك، وما بقي، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم، وليس شيئاً عملته بالأركان، فإذا أنت ـ إنما هو أمر نويته وتمتنع فيما بقي من الذنوب وامتناعك إنما هو شيء نويته، وليس شيئاً عملته بالأركان فإذا أنت ـ نجوت بغير عمل مع القيام

بالفرائض، وهذا ليس بعمل، وهو أكبر الأعمال لأنه عمل القلب، والجزاء لا يكون إلا على عمل القلب.

❁ ❁ ❁

دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

❁ ❁ ❁

إذا كنت لا ترضى عن الله، كيف تسأله الرضا عنك؟

❁ ❁ ❁

لولا أن العفو من أحب الأشياء إليه، ما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

❁ ❁ ❁

كم من مستغفر ممقوت، وساكت مرحوم، ثم قال: هذا استغفر الله وقلبه فاجر، وهذا سكت وقلبه ذاكر.

❁ ❁ ❁

حقيقة المحبة أنها لا تزيد بالبر، ولا تنقص بالجفاء، وأنشد.

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها ... إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة ... لعل سقمها يوماً يداويها

❁ ❁ ❁

يا ابن آدم، طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها فاعقل شأنك.

❁ ❁ ❁

مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

❁ ❁ ❁

لا يزال دينك متمزقاً ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً.

❁ ❁ ❁

الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك.

❁ ❁ ❁

حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنا.

❁ ❁ ❁

ألا إن العاقل المصيب من عمل ثلاثاً: ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

❁ ❁ ❁

الدنيا خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.

❁ ❁ ❁

أخوك من عرفك العيوب، وصديقك من حذرك من الذنوب.

❁ ❁ ❁

عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، كيف لا يحزن على نقصان عمره!!

❁ ❁ ❁

على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك.

❁ ❁ ❁

إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما غرك بي؟ قلت: إِلٰهي برّك بي.

❁ ❁ ❁

استسلم القوم عندما فهموا.

❁ ❁ ❁

من قوة اليقين: ترك ما يرى لما لا يرى.

❁ ❁ ❁

أيها المريدون، إِن اضطررتم إِلى طلب الدنيا فاطلبوها ولا تحبوها، اشغلوا بها أبدانكم وعلقوا بغيرها قلوبكم، فإِنها دار ممر وليست بدار مقر، الزاد منها والمقيل في غيرها.

❁ ❁ ❁

رضي الله عن قوم فغفر لهم السيئات، وغضب على قوم فلم يقبل منهم الحسنات.

❁ ❁ ❁

التوحيد في كلمة واحدة ما تصور في الأوهام بخلافه.

❁ ❁ ❁

طاعة لا حاجة بي إِليها لا تمنعني مغفرة لا غناء بي عنها.

❁ ❁ ❁

ذنب أفتقر به إِليه، أحب إِليّ من عمل أدل به عليه.

إِلٰهي، كيف لا أرجوك تغفر لي ذنباً رجاؤك ألقاني فيه.

❁ ❁ ❁

إن الحكيم يشبع من ثمار فِيْه.

❁ ❁ ❁

كيف أحب نفسي وقد عصيتك، وكيف لا أحبها وقد عرفتك؟

❁ ❁ ❁

إِن غفرت فخير راحم، وإِن عذبت فغير ظالم.

❁ ❁ ❁

إِلٰهي، ضيعت بالذنب نفسي، فارددها بالعفو عليّ.

❁ ❁ ❁

إِلٰهي، ارحمني لقدرك عليّ، أو لحاجتي إِليك.

❁ ❁ ❁

مسكين من عِلْمُه حجيجه، ولسانه خصيمه، وفهمه القاطع لعذره.

❁ ❁ ❁

ذنوب مزدحمة على عافية مبهمة، ثم قال: إِلٰهي، سلامة إِن لم تكن كرامة.

❁ ❁ ❁

يا من رباني في الطريق بنعمه، وأشار لي في الورود إِلى كرمه، معرفتي بك دليل عليك، وحبي لك شفيعي إِليك.

❁ ❁ ❁

يا من أعطانا خير ما في خزائنه: الإِيمان به قبل السؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال.

❁ ❁ ❁

إِلٰهي، إِن إِبليس لك عدو، وهو عدو، وإِنك لا تغيظه بشيء، هو أنكى له من عفوك، فاعف عنا يا أرحم الراحمين.

❁ ❁ ❁

يا من يغضب على من لا يسأله، لا تمنع من قد سألك.

❁ ❁ ❁

لا تقع للمؤمن سيئة إِلا وهو خائف أن يؤخذ بها، والخوف حسنة فيرجو أن يعفى عنها والرجاء حسنة.

❁ ❁ ❁

ويقول: إِلٰهي، لا تنس لي دلالتي عليك، وإِشارتي بالربوبية إِليك، رفعت يداً بالذنوب مغلولة، وعيناً بالرجاء مكحولة، فاقبلني لأنك ملك لطيف، وارحمني لأني عبد ضعيف.

❁ ❁ ❁

هذا سروري بك خائفاً، فكيف سروري بك آمناً، هذا سروري بك في المجالس، فكيف سروري بك في تلك المجالس، هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف يكون سروري بك في دار البقاء.

❁ ❁ ❁

من أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر في العلم، من أحب أن يعرف الزهد فلينظر في الحكمة، ومن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر في فنون الآداب، ومن أحب أن يستوثق من أسباب المعايش

فليستكثر من الإِخوان، ومن أحب أن لا يؤذى فلا يُؤْذِيَنْ، ومن أحب رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى.

❁ ❁ ❁

من خان الله عز وجل في السر، هتك سره في العلانية.

❁ ❁ ❁

لست آمركم بترك الدنيا آمركم بترك الذنوب، ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إِلى إِقامة الفريضة أحوج منكم إِلى الحسنات والفضائل.

❁ ❁ ❁

لا تكن ممن يفضحه يوم موته: ميراثه، ويوم حشره: ميزانه.

❁ ❁ ❁

الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها لا يفيق إِلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين.

❁ ❁ ❁

كيف يكون زاهداً من لا ورع له؟ تورع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك.

❁ ❁ ❁

اللهم إِن كان ذنبي قد أخافني، فإِن حسن ظني بك قد أجارني، اللهم سترت عليّ في الدنيا ذنوباً أنا إِلى سترها في القيامة أحوج، وقد أحسنت بي إِذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين، فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين، يا أرحم الراحمين.

❁ ❁ ❁

الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

❁ ❁ ❁

لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

❁ ❁ ❁

الورع: الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

❁ ❁ ❁

الورع على وجهين: ورع في الظاهر، وورع في الباطن، فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه.

❁ ❁ ❁

من لم ينظر في الدقيق من الورع، لم يصل إلى الجليل من العطاء.

❁ ❁ ❁

يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟

❁ ❁ ❁

إلٰهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

❁ ❁ ❁

سُئل يحيى: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلا.

❁ ❁ ❁

صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجباً! كيف يصبرون؟ وأنشد:

والصبر يجمل في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

❁ ❁ ❁

قيل ليحيى: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

❁ ❁ ❁

من استحيى من الله مطيعاً، استحيى الله منه وهو مذنب.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته، فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحيي أن يرى من وليه ومن يَكْرُم عليه ما يشينه عنده، وفي الشاهد شاهد بذلك، فإن الرجل إذا طلع على أخص الناس به، وأحبهم إليه، وأقربهم منه ـ من صاحب أو ولد أو من يحبه ـ وهو يخونه، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب، حتى كأنه هو الجاني، وهذا غاية الكرم.

❁ ❁ ❁

سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو.

❁ ❁ ❁

أشد شيء على المريد: معاشرة الأضداد.

❁ ❁ ❁

إِذا ترك العارف أدبه مع معروفه، فقد هلك مع الهالكين.

❁ ❁ ❁

من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.

❁ ❁ ❁

علامة الشوق: فطام الجوارح عن الشهوات.

❁ ❁ ❁

العارف كائن بائن، وهذا يفسر على أوجه:

منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره، بائنٌ عنهم بِسِرِّه وقلبه.

ومنها: أنه كائن بربه بائن عن نفسه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.

ومنها: أنه كائن مع الله بموافقته، بائن عن الناس في مخالفته.

ومنها: أنه داخل في الأشياء خارج منها؛ فإِن من الناس من هو داخل فيها لا يقدر على الخروج منها، ومنهم من هو خارج عنها لا يقدر على الدخول فيها، والعارف داخل فيها خارج منها، ولعل هذا أحسن الوجوه.

❁ ❁ ❁

بئس الصديق صديقاً يحتاج أن يقال له: اذكرني في دعائك، وبئس الصديق صديقاً يحتاج أن يعتذر إِليه، وبئس الصديق صديقاً يحتاج أن يعيش معه بالمداراة.

❁ ❁ ❁

من كان غناه في كسبه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً.

❁ ❁ ❁

إذا أحب القلب الخلوة أوصله حب الخلوة إلى الأنس بالله، ومن أنس بالله استوحش من غيره.

❁ ❁ ❁

سَلِّم على الخلق وارحل نحو مولاكا واهجر على الصدق والإخلاص دنياكا
عساك في الحشر تعطى ما تؤمّله ويكرم الله ذو الآلاء مثواكا!

❁ ❁ ❁

العارف يخرج من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ إلٰهي! هذا رفقك بمن يقول: أنا إلٰه، فكيف بمن يقول: أنت الإله؟!

❁ ❁ ❁

وقال له رجل: إنك لتحب الدنيا، فقال: أين السائل عن الآخرة؟ قال: ها أنا، قال: أخبرني أيها السائل عنها، أبالطاعة تنال أم بالمعصية؟ قال: لا، بل بالطاعة، قال: فأخبرني عن الطاعة، أبالحياة تنال أم بالممات؟ قال: لا، بل بالحياة، قال: فأخبرني عن الحياة، أبالقوت تنال أم بغيره؟ قال: لا، بل بالقوت، قال: فأخبرني عن القوت، أمن الدنيا هو أم من الآخرة؟ قال: لا، بل من الدنيا، قال: فكيف لا أحب دنيا، قُدِّر لي فيها قوتاً، أكتسب به حياة أُدرك بها طاعة

أنال بها الآخرة؟! فقال الرجل: أشهد أن ذلك معنى قول النبي ﷺ: «**إِن من البيان لسحراً**».

۞ ۞ ۞

ودعني أُداري الحب من كل جانب فليسَ لها مني سبيل ومهربُ
وَحَمَّلتني ما لا تطيق جوارحي فَسِرُّك في الأحشاء مني مُغيّبُ

۞ ۞ ۞

الجاهل رأى الذنب في الخطيئة؛ فنظر بالغلظة إِليه، والعارفُ عرف موقعه منه؛ فنظر بالشفقة عليه.

۞ ۞ ۞

إِلٰهي، حجتي عندك: عِلْمي بأن الحجة لك.

۞ ۞ ۞

إِذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإِن صبر اجتباه، وإِن رضي اصطفاه، وإِن سخط نفاه وأقصاه.

۞ ۞ ۞

أشهد أن السماوات آياتٌ بينات، وشواهد قائمات، كلٌّ يؤدي عنك بالحجة، ويُقرُّ لك بالربوبية، وهي موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجليت بها لخلقك، وأوصلت إِلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر، ورجم الظنون، فهي على اعترافها بك، وَوَلَهِها إِليك، شاهدةٌ بأنّك لا تُحيط بك الصِّفات، ولا تحُدُّك الأوهام.

۞ ۞ ۞

الاقتصاد في العيش ضَيْعَةٌ لم تَتَكَلَّفْ منها؛ تمتُّعُ القلوب في

الدنيا غفلتها عن الآخرة؛ الزهد حلوٌ مُرّ، أما حلاوته فاسمه، والمذاكرة به، وأما مرارتُه فمعالجته.

۞ ۞ ۞

اللهم إني جعلت الاعتراف بالذنب وسيلة لي إليك، واستظللت بتوكلي عليك، فإن غفرت فمن أولى بذلك منك، وإن عاقبت فمن أعدل في الحكم منك؟

۞ ۞ ۞

اللهم إني لا أيأس من نظرك ورحمتك بعد مماتي، ولم تولني غير الجميل في حياتي، تَتَابُعُ إحسانك إليّ يدلني على تفضلك عليّ، فكيف يشقى من أسلفته جميل النظر؟

۞ ۞ ۞

اللهم إن نظرتْ إليّ بالهلكة عيونُ سُخطك، فلم تغفل عن استنقاذي منها عيونُ كرمك؛ اللهم إن كنت غير مستأهلٍ لكرمك ومعروفك فكن أهلاً للتطول، فإن الكريم ليس يضيع معروفه عن جميع مستحقيه.

۞ ۞ ۞

إلٰهي، إن كان ذنبي عرّضني لعقابك، فقد رجوت الدنُّو برجائي من ثوابك، لولا ما اقترفته من الذنوب ما خفت من العقاب، ولولا ما عرفتُ من الكرم ما رجوتُ الثواب.

۞ ۞ ۞

جاء إلى شيراز يحيى بن معاذ الرازي وله شيبة حسنة، وقد لبس دست ثياب أسود، فكان أحسن شيء، فصعد الكرسي فاجتمع إليه الناس، وأول ما بدأ به أنشأ يقول:

مـواعـظ الـواعـظ لـن تـقـبـلا حـتـى يـعـيـهـا لُـبُّـه أوَّلا
يـا قـوم مـن أظـلـم مـن واعـظ خـالـف مـا قـد قـالـه فـي الـمـلا
أظـهـرَ بـيـن الـنـاس إحـسـانَـه وبـارز الـرحـمـنَ لـمـا خـلا

وسقط عن الكرسي، وغشي عليه، ولم يتكلم في ذلك اليوم، ثم إنه ملك قلوب أهل شيراز بعد ذلك، حتى إذا أراد أن يُضحكهم أضحكهم، وإذا أراد أن يُبكيهم أبكاهم.

❁ ❁ ❁

العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم.

❁ ❁ ❁

إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا.

❁ ❁ ❁

يا أصحاب العلم، قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟

❁ ❁ ❁

ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة.

❁ ❁ ❁

الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها: الدعاء، وأسنانها: لقم الحلال.

❁ ❁ ❁

فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها، ولا أراها تزداد إلا قلة، حسن الوجه

مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإِخاء مع الوفاء.

❁ ❁ ❁

في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

❁ ❁ ❁

جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى مع جميع الأنام، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إِلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، وإِذا تحركت من النفس إِرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام، جرزت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة، ونورية خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان.

❁ ❁ ❁

أعداء الإِنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

❁ ❁ ❁

جوع الراغبين منبه، وجوع التائبين تجربة، وجوع المجتهدين كرامة، وجوع الصابرين سياسة، وجوع الزاهدين حكمة.

❁ ❁ ❁

معاشر الصدّيقين جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإِن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس.

۞ ۞ ۞

الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك.

۞ ۞ ۞

الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها.

۞ ۞ ۞

الدرهم عقرب فإِن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإِنه إِن لدغك قتلك سمه،، قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه.

۞ ۞ ۞

ما في القلب للأسخياء إِلا حب ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إِلا بغض ولو كانوا أبراراً.

۞ ۞ ۞

قيل ليحيى بن معاذ: من آمن الخلق غداً؟ قال: أشدهم خوفاً اليوم.

۞ ۞ ۞

من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار.

۞ ۞ ۞

حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإِيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

❁ ❁ ❁

قال رجل ليحيى: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد، وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إِذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إِلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن عليك أن تفتضح.

❁ ❁ ❁

في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

❁ ❁ ❁

عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟

❁ ❁ ❁

مثقال خردلة من الحب أحبّ إِليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب.

❁ ❁ ❁

إِلٰهي، إِني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إِليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقلبتني في الأعمال، ستراً وتوبة، وزهداً وشوقاً، ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً بقولك،

وما طر شاربي، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً؟ وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك دندنة، والضراعة إِليك همهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

❁ ❁ ❁

الإِخلاص يميّز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم.

❁ ❁ ❁

من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إِلى المخلوقين.

❁ ❁ ❁

التواضع في الخلق حسن، ولكن في الأغنياء أحسن، والتكبر سمج في الخلق ولكن في الفقراء أسمج.

❁ ❁ ❁

من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه.

❁ ❁ ❁

إِذا ابتلي المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له، ومن ابتلي بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة، وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها، فإِذا جوَّع بطنه، وأَحَدَّ حلقه، ورَاض نفسه يبس كل عضو، واحترق بنار الجوع، وفر الشيطان في ظله، وإِذا أشبع بطنه وترك خلفه في لذائذ الشهوات، فقد رطب أعضاؤه وأمكن الشيطان، والشبع نهر في النفس ترده الشيطان، والجوع نهر في الروح ترده الملائكة، وينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إِذا كان قائماً، ويعانق الشيطان شبعاناً قائماً فكيف إِذا كان نائماً، فقلب المريد الصادق يصرخ إِلى الله تعالى من الطعام والشراب.

❁ ❁ ❁

الورع: الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل.

* * *

حقيقة الفقر ألا يستغنى إلا بالله.

* * *

إن سيئة المؤمن مقرونة بحسنتين: الخوف والرجاء، وكل حسنة بعشر أمثالها، فصارت سيئة مقرونة في الحقيقة بعشرين حسنة.





أهمية الوقت

ما هي الحياة إلاّ الدقائق والثواني، وما هي الحياة إلا الأيام والليالي، وما هي الحياة إلا الأنفاس، الوقت هو الحياة، الوقت أغلى من الذهب والفضة، الوقت أغلى وأرفع من الشهرة والمنصب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

يا مَن خُلقَ للعبادة، يا مَن خُلق لحفظ وقته مع الله، يا مَن خُلق لرسالة عظيمة، هل حاسبت نفسك في وقتك؟ وفي أيامك؟ وفي لياليك؟ وهل عرفت أين ذهبَت دقائقك وثوانيك؟

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجةٌ ما بقي

يقول ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: اغتنم شبابك قبل هرمك،**

وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك» أو كما قال ﷺ(١).

قد تأتي إجازة الربيع على البنين والبنات، وعلى الدَّارسين والدَّارسات، وهي إجازة في عُرف البشر، ولكنها ليست إجازة عند رب السموات والأرض، فالمسلم ليس له عطلة ولا راحة حتى تدخل قدماه الجنة.

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنا إذا متنا بُعثنا ويَسألُ ربنا عن كل شي

فليس لنا إجازة ولا عطلة، يعطينا البشر إجازات، وعطل، وراحات، ولكن رب البشر يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩] لا نُعَطل ليلاً ونهاراً؛ فملَك الحسنات يسجّل ويقيّد، وملك السيئات يحسب ويحصي، فأين المفر من الله إلا إليه؟.

يقول عطاء بن رباح لشباب مرَّ بهم صامتون ساكتون: ما لكم لا تسبِّحون ولا تذكرون، أتنسون أن عليكم ملائكة يكتبون ما تفعلون؟ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٨].

---

(١) اخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٤٨)، وابن أبي شيبة (٣٤٣١٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٢٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٥٠).
عن عمرو بن ميمون، وانظر: المشكاة (٥١٧٤) وأخرجه الحاكم (٧٨٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.



حين تأتي هذه العطلة ينقسم شباب الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ ظالم لنفسه.

٢ ـ مقتصد.

٣ ـ سابق بالخيرات.

أولاً ـ الصنف الظالم لنفسه:

فأما الظالم لنفسه، فشاب ظن أن الحياة غناء ورقص، ولعب ولهو، وأكل وشرب ونوم، وذهاب وإياب، وما عَلِمَ أن الله سوف يسأله عن كل دقيقة من دقائق حياته.

شاب جعل هذه العطلة، أو الإجازة للشهوات؛ وتناول المخالفات، ولزيادة السيئات، ونسي رقابة الواحد الأحد رب الأرض والسموات.

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

شاب نسي مراقبة الله، وعين الله، ولقاء الله، يسمع العود

والغناء، يرقص مع كل راقص، نسي أنه ابنٌ لخالد بن الوليد الذي أسمع أذن الدهر، وخطب على منبر الدنيا، وأسال دم الوثنية في الأرض لترتفع راية لا إله إلا الله.

نسي أنه ابنٌ لسعد بن أبي وقاص الذي دكَّ إيوان كسرى، وكبّر في الإيوان فلما انصدع قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

نسي أنه ابنٌ لعمر بن الخطاب الذي إذا ذُكر في مجالس القياصرة والأكاسرة أغمي عليهم!

يا من يرى عمراً تكسوه بُردته — والزيت أُدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرطاً — وملوك الروم تخشاه

وأبناء عمر، وأبناء خالد، وأبناء سعد، يخرجون مغنِّين راقصين لاعبين مشجِّعين، لا والله، هذا باطل وظلم وجَوْر.

وينشأ ناشىء الفتيان منا — على ما كان عوَّدَه أبوه

فيا رب، هذه هي الأمة التي رفعت اسمك على النجوم، لا تضيِّع آخرها، واحفظها كما حفظت أولها، يا رب، هؤلاء أبناء الذين أسكتوا البشرية ليسمعوا كلامك الإنسانية.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع — اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما — صرنا على موج البحار بحارا

مَن المسؤول عن إخراج أجيال عمر وخالد وسعد ليصبحوا في الساحة مغنِّين ومغنيات، وراقصين وراقصات؟؟!

هذا الصنف من الشباب يتحرَّى الإجازة بلهب ليذهب في كل مذهب، أما الصلوات فلا تسأل عنها فقد ضيّعها، وأما القرآن فهجره، وأما الذكر فلا يعرفه، وأما المسجد فما اهتدى إليه.

همه المجلة الخليعة، وديدنه: الأغنية الماجنة، وجُلاَّسه: كل خسيس من الدنيا.

ثانياً - الصنف المقتصد:

وأما الصنف الثاني: فمقتصد، لم يستغل الإجازة في معصية الله، بل استغلها في المباحات، يؤدي الفرائض وينتهي عن المحرَّمات.

ينام نوماً عميقاً، فإذا استيقظ اشتغل بالزيارات والنزهات والفسحات.

فأين استثمار الوقت؟ أين القراءة؟ أين التلاوة؟ أين التحصيل العلمي؟

يقول بعض أهل العلم من نام من كل أربع وعشرين ساعة ثماني ساعات، فقد نام من عُمُره، ستون سنة، عشرين سنة، ثم تبقى له أربعون سنة ما بين لهو ولغو ومعاصي ومخالفات، وشغل بالدنيا وبالدرهم والدينار.

ثالثاً - صنف السابقين بالخيرات:

هم شباب الإسلام، وهم نجوم التوحيد، وهم كوكبة محمد ﷺ، وهم الفجر لهذا الدين، إنهم شباب عرفوا الحياة، وعرفوا أنهم سوف يقفون بين يدي علاَّم الغيوب، وعرفوا أن الستين سنة والسبعين هي مزرعة للآخرة، وعرفوا أن السلف الصالح استثمروا أوقاتهم في مرضات الله تعالى.

كان سعيد بن المسيِّب، رحمه الله، ينام قليلاً، ثم يستيقظ، فيقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شرٍّ، والله لا تنامين حتى الفجر.

ويقول الأسود بن يزيد، وكان يَسرد الصوم، فيقول له الناس:

خفِّف على نفسك من الصيام، فيقول: إذا أصبحتُ في القبر فمن يصوم عني؟ ومن يصلّي عني؟ ومن يقرأ عني؟ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤].

هل رأيتم ميتاً في قبره يصلي؟ هل رأيتم ميتاً يصوم؟ هل رأيتم ميتاً يذكر الله؟

أبني أبينا نحن أهل منازل ... أبداً غُراب البَين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وما من معشر ... جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى ... كنزوا الكنوز فلا بقينا ولا بقوا
خُرسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلال مطلق

هذا الشاب سابق بالخيرات، كتاب الله خِدْنه ورفيقه، صديقه ورضيعه وربيع قلبه. لا تفوته الصلوات ولا تكبيرة الإحرام في جماعة.

هؤلاء الشباب مقبلون على العلم إقبالاً جازماً وعازماً على تحرير المسائل، وعلى التحقيق، وعلى استثمار الوقت، لا تفوتهم دروس الهدى، والخير ومحاضرات العلم والإيمان.

دروسهم دعوة، وجلساتهم إيقاظ وصحوة، وحركاتهم طاعة، فهؤلاء الذين سبقوا بالخيرات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فيا شباب الإسلام، يا أيها الفضلاء، يا أيها النبلاء، ألا تريدون أن تكونوا من السابقين بالخيرات الذين ليلهم طاعة، ونهارهم تسبيح وزلفى وقربى من الله، كمصعب بن عمير، وسعد، وخالد، كطارق وصلاح الدين؟

فهم:

عُبَّاد ليل إذا جُن الظلام بهم ... كم عابد دمعه في الخدِّ أجراه

وأُسْدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم هَبُّوا إلى الموت يَسْتَجْدون رؤياه
يا رب فابعث لنا من مثلهم نفراً يُشيدون لنا مجداً أضعناه

في كتب الحديث بسند صحيح أن شباباً أتوا رسول الله ﷺ فقال: «**ماذا تريدون؟**» فكلٌ منهم طلب من مطالب الدنيا ومن مقاصد الحياة، هذا يريد ثوباً فيعطيه ﷺ ثوباً، وهذا يريد دنانير ودراهم فيعطيه ﷺ دراهم ودنانير، والثالث يطلب طعاماً فيعطيه.

أما أحدهم فتوقف وقال: يا رسول الله، أريد أن تناجيني لطلب بيني وبينك فخلا به ﷺ.

قال: إنني لا أريد دنيا يا رسول الله، ولكني أريد مرافقتك في الجنة.

فقال ﷺ: «**أو غير ذلك**»، قال: هو ذاك يا رسول الله.

قال: «**فأعِنّي على نفسك بَكثرة السجود**»[1]، وفي حديث ثوبان أيضاً أنه سأل الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة أو بأحب الأعمال إلى الله فقال له النبي ﷺ: «**عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط منك خطيئة**»[2].

هؤلاء شباب الإسلام، وهذه طريق الجنة، وبهذا يستثمر الوقت.

قال الذهبي: ثبت عن الإمام أحمد أنه كان يصلي غير الفرائض في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة، فلما سُجن وضُرب في سبيل الله ومن أجل رفع لا إله إلا الله، ما استطاع أن يصلي إلا مائة وخمسين ركعة من غير الفرائض.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٩)، وأبو داود برقم (١٣٢٠)، والنسائي برقم (١١٣٨).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٨٨)، وأحمد برقم (٢١٨٦٥، ٢١٩٠٥)، والترمذي برقم (٣٨٨)، والنسائي برقم (١١٣٩)، وغيرهم.

قال الذهبي: وممن كان يصلي صلاة طويلة من العشاء إلى الفجر عليُّ بن الحسين زين العابدين، كان إذا أطلَّ عليه الليل، وأقبل عليه النهار، توضأ، وأتى إلى فراشه، وقال: ما أحسنك، وما أدفأك، وما أرْوَحك، ولكنْ في الجنة أحسن منك، وأروح منك، وأدفأ منك، والله لا أنام حتى الصباح، فكان يصلي حتى الفجر، فإذا طلع الفجر رؤي على وجهه قبس من نور، وشعاع من ضياء.

قالوا للحسن البصري: ما للذين يقومون الليل على وجوههم نور؟ فقال: خلوا بالله فأكسبهم نوراً من نوره.

وقال ابن رجب: كان خالد بن معدان يسبِّح كل يوم مائة ألف تسبيحة، فلما سُئِل لماذا تسبِّح مائة ألف؟ قال: ديتي مائة ألف درهم، فأنا أسبِّح مائة ألف قدر ديتي؛ لعل الله أن يُعتقني من النار.

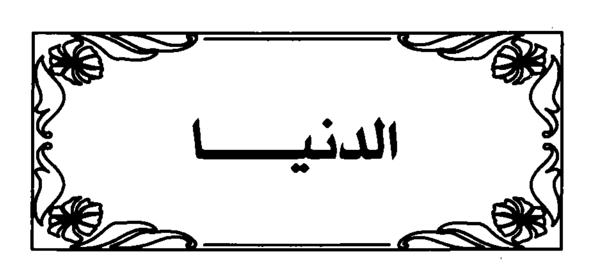
إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً ... قد شبتُ في الرق فأعتقني من النار

يا شباب الإسلام، يا جيل محمد ﷺ، يا حفَظَة دولة الإسلام، يا من دكَّ أجدادهم دولة الأصنام، أنتم مرشحون للعودة إلى الله، وأنتم مرشحون لقيادة البشرية، وأنتم مرشحون لقيادة الإنسانية.

من يقود الناس إلا أنتم؟ ومن يهدي ويدل إلى الخير إلا أنتم؟ ومن يوجه الناس إلا أنتم؟.

اللهم رُدَّنا إليك رداً جميلاً، وكفِّر عنا سيئاتنا، وأصلح بالنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا ممن يقود الناس إلى جنة عرضها السموات والأرض، وصلَّى الله على سيدنا محمد. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁



الدنيـــا

إن الحمدَ لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد..:

أيها الناس، يقول الله جلّت قدرته: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

هذه حقيقة الدنيا، وهذه حقيقة الآخرة.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

نصبح لاعبين إذا أصبحنا بلا دين.

ونمسي لاعبين، إذا أمسينا بلا دين.

ونعيش لاعبين، إذا عشنا بلا دين.

ونموت لاعبين، إذا متنا بلا دين.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: طلاء وبريق ولمعان، ولكن الحقيقة للآخرة، والبقاء للآخرة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

كيف يجوع الرسول ﷺ في الدنيا، ويموت كسرى وقيصر حَبَطاً وتُخمةً من الأطعمة والأشربة؟

كيف يعيش ﷺ في بيت من طين، ويعيش كسرى وقيصر في قصور الذهب والفضة والزبرجد؟

كيف يكتسي ﷺ فلا يجد إلا قطعة من القماش يداولها زمناً، ويتحلّى كسرى وقيصر بالإبرَيْسم والحرير؟

يدخل عمر، رضي الله عنه وأرضاه، على الرسول ﷺ في مَشْربة (غرفة) والرسول ﷺ نائم وقد اعتزل نساءه.

فرأى الرسول ﷺ مضطجعاً على حصير، وقد أثّر الحصير والخصف، وهذا اللحاف في جنبه ﷺ.

فنظر عمر إلى البيت، فرأى شيئاً من شعير معلّق في السقف.

فدمعت عين عمر.

فقال له ﷺ: ما لك يا ابن الخطاب؟

قال: يا رسول الله، كسرى وقيصر، وهم أعداء الله، فيما تعلم، وأنت رسول الله، وحبيب الله، وأنت في هذه الحالة؟

فيقول ﷺ: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أما ترضى أن تكون لهم الدنيا وتكون لنا الآخرة؟**»[1].

أما ترضى أن يأكلوا، ويسكنوا القصور، ويتولوا ما أرادوا، ويتفكَّهوا بما أرادوا، ويتمتعوا بما أرادوا، ولكن الآخرة بجناتها وأنهارها وقصورها للمتقين ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

يقول الشافعي، رحمه الله:

تموت الأُسْدُ في الغابات جوعاً ولحم الضأن تأكله الكلابُ

هكذا حكمة الباري بألاّ يُعطي هذا الدين إلا من يُحب، وأما الدنيا فيعطيها من يحب ومن لا يحب، بل يعطيها الزنديق الملحد، والرِّعْديد المنافق، والفاجر المتهتِّك.

جاء عنه ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لو أن الدنيا تساوي عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**»[2]، لكنها ضئيلة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٦٨)، ومسلم برقم (١٤٧٩)، وأحمد برقم (٢٢٢)، والترمذي برقم (٣٣١٨).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه برقم (٤١١٠)، وانظر: المشكاة برقم (٥١٧٧).

وزهيدة، فما رضيها الله لعباده وما رضيها رسول الله ﷺ للصحابة.

لقد قُطعت أجسامهم في سبيل الله، وضُربت أبشارهم، وسُفكت دماؤهم، وقُطعت رؤوسهم، وهم يبايعون ويقدِّمون أرواحهم، ويقولون: يا رسول الله، ما لنا إذا نصرك الله؟

فما قال: المناصب، وما قال: المُلك، وما قال: الأموال، بل قال: الجنة.

فقام ابن رواحة، أحد الشباب الأبطال، وقال: ربح البيع يا رسول الله، والله لا نقيل ولا نستقيل.

فهو بيع مُبْرَم، والله لا نعود فيه، ولا ننكث البيعة، وسوف ترانا نقدم أنفسنا، ما دمت قد ضمنت لنا الجنة، وأتيت بالعقد من السماء.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١)﴾ [التوبة: ١١١].

كان سالم مولى أبي حذيفة، أحد الموالي، من أصحاب الرسول ﷺ يحفظ القرآن، فخرج من المدينة مع جيش المسلمين إلى اليمامة ليقاتل مسيلِمة الكذاب، فلما بدأت المعركة ذهب، فاغتسل، وتحنَّط، ولبس أكفانه، وكسر غِمده على ركبته، ثم قاتل حتى قُتل، وقال قبل أن يُقتل: بئس حامل القرآن أنا إذا انهزمت اليوم، فذهب ولم يبقِ قليلاً ولا كثيراً.

والمقصود من هذه الحقائق التي ذكرها الله عز وجل: أن يعلم الإنسان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، ومن هم أهل الجنة، ومن هم أهل النار.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الحديد: ٢٠] اعلموا إن كنتم تعلمون، واسمعوا إن كنتم تسمعون، وافهموا إن كنتم تفهمون.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

بوّب البخاري في صحيحه: (باب) ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه من شظف العيش.

قال أبو هريرة: أصابني جوع، الله به عليم، حتى والله الذي لا إله إلا هو إني كنت أُصْرَع بين المنبر وبيت الرسول ﷺ.

قال: فيأتي الصحابي فيظن أن بي مسّاً من الجن.

فصليت ليلة من الليالي مع الرسول ﷺ، وقد أصابني من الجوع، وفي بعض الروايات: ما كنت أدري ما يقرأ بنا في الصلاة.

فلما أنهى الصلاة، خرجت لأتعرَّض للناس لعلهم يأخذونني إلى بيوتهم ليطعمونني.

لكن هل يعرض نفسه ويقول: أطعموني؟ هل يقول: أشْبِعُوني واسقوني؟

لا.. بل كان يعرض نفسه، فيسألهم عن بعض الآيات من القرآن، لعلهم يفهمون مقصده فيضيفونه! فتعرَّض لأبي بكر، لكنه لم يفهم ما يريد بل أجاب على سؤاله ومضى! وهكذا عمر، رضي الله عنهم!

قال: فخرج ﷺ فتعرَّضت له، فوالذي نفسي بيده لقد بدأني بالكلام قبل أن أبدأه فتبسَّم، وقال: تعال معي.

عرف ﷺ أنه لا يحمل سؤالاً، ولكنه يحمل جوعاً وظمأً.

قال: فأدخلني في البيت، وما فيه كسرة خبز، ولا فيه تمرة واحدة، ولا زبيبة، وما فيه إلا قَدَح لبن، فرأيت اللبن فقلت: يسقيني الآن فيرد عليّ جوعي بإذن الله.

فقال: يا أبا هِرّ.

قلت: لبيك وسعديك، يا رسول الله.

قال: اذهب إلى أهل الصُّفَّة الفقراء المساكين في المسجد فنادِهم.

فقلت في نفسي: الله المستعان، أنا أولى بهذا اللبن، وأهل الصُّفَّة إذا أتوا، وهم ما يقارب السبعين، أو الثمانين، لا يبقون من اللبن شيئاً، فماذا يبقى لي؟ لكن لا بد من أمر الرسول ﷺ.

فذهب إلى أهل الصُّفَّة، فناداهم فجاؤوا يُهرعون، حتى دخلوا على المصطفى ﷺ، فأعطاهم من اللبن حتى شربوا وارتووا جميعهم، وأبو هريرة يراقب الموقف، وقد أُسقط في يده، فلما انتهوا وخرجوا قال ﷺ: يا أبا هر.

قلت: لبيك وسعديك، يا رسول الله.

قال: خذ الإناء فاشرب.. فشربت والله حتى ارتويت.

فقال: اشرب.

فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً ما أجد له مكاناً.

فأخذ البقية في الإناء فسمّى وشرب ﷺ[1].

لقد ناله ﷺ التعب والجوع، ولم يكن جزاؤه في هذه الدنيا، لأنها دنيا توشك أن تزول فهي كظل الشجر، بل العطاء والرضى سيكون في الآخرة كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥].

دخل عمر، رضي الله عنه، على إبل الصدقة، ومعه مولاه

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٥٢)، وأحمد برقم (١٠٣٠١)، والترمذي برقم (٢٤٧٧).

وخادمه، فقال الخادم لما رأى الإبل الحمر كأنها الجوخ: صدق الله يوم يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس: ٥٨].

فقال عمر: كذبتَ يا عدو الله، ليس كما تقول.

أتدري ما رحمة الله؟ رحمة الله: الاستقامة على أمر الله، والعمل على نور من الله حتى تلقى الله.

يقول تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)﴾ [التكاثر: ١]، تكاثرتم حتى حُملتم على النعوش إلى المقابر.

أتيت القبور فناديتها أين المعظّم والمحتقر
تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر

ويقول سبحانه عن الدنيا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، لا ثياب، ولا سيارات، ولا قصور، ولا مناصب، ولا أولاد، ولا أموال، ولا وظائف، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] فلم تأتوا معكم بشيء منها.

وقف علي، رضي الله عنه، على القبور فبكى، وقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أنخبركم بأخبارنا؟ أما الزوجات فتزوَّجت، وأما البيوت فقد قُسمت، وأما الأموال فقد وُرثت، هذه أخبارنا فما أخباركم؟

ثم بكى وقال: سكتوا، ووالله لو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

لقد وصف الله هذه الدنيا، كما سبق، كحديقة غنّاء فيها من الزهور، والأشجار الشيء الكثير، والشيء الجميل والبديع، وتحوم فيها الطيور المغردة، والنحل البهي، والفراش الملوَّن.

ولكن فجأة.. فإذا الحديقة قد ذبلت أشجارها، وتساقطت ورودها وأزهارها، وولّت طيورها وفراشها.

فأصبحت الأرض كالحة يابسة جافة، حتى تكاد تسأل نفسك وتقول: أهذه هي الحديقة التي مررت بها قبل أيام، أو قبل ساعات؟

أين الزهر؟

أين التمر؟

أين البلبل؟

أين الماء؟

لقد ذهب ذلك إلى غير رجعة.

وهكذا حال الدنيا يا عباد الله، تُزهر وتتزين للناظرين، فإذا هي عما قليل قد انطفأت بهجتها.

وضمرت نضارتها وذابت.

ولكن من يعتبر؟

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠] للعصاة والمعرِضين ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠] للطائعين المؤمنين.

أما موعوده سبحانه لأهل الإيمان فقد مضى معنا أنه جنة عرضها كعرض السماء والأرض.

جنة واسعة لا تحيط بها العين، ولا تسعى عليها القدم، لأقل واحد فيها مثل مُلْك أغنى أهل الأرض عشر مرات.

وموضع سوط فيها خير من الدنيا وما فيها.

ولكن كل هذا لمن أُعدّ؟ ولمن هُيِّىءَ؟

قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ [الحديد: ٢١] دون غيرهم ممن لم يؤمن لا بالله ولا برسله.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لا فضل غيره: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

فنسأل الله من فضله العظيم، وأن يجعلنا من ورثة هذه الجنة الواسعة وآباءنا والمسلمين.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.





الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

معنا في هذه الأوراق حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي حُميد الساعدي، رضي الله عنه وأرضاه، قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأَزد، يُقال له: ابن اللُّتبِيَّة على صدقات بني سليم، فلما بعثه ﷺ لقبض الصدقات، أتى، فقال: يا رسول الله، هذا لكم ـ يعني شيئاً من الصدقة ـ وهذا أُهديَ إليَّ.

فقال ﷺ له: **أفلا جلست في بيت أبيك وأمك فترى هل يُهدى إليك أم لا؟**

ثم قام ﷺ خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: **ما بال رجال أبعثهم لقبض الصدقات فيأتي أحدهم، فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ، أفلا كان جلس في بيت أبيه وأمه فيرى هل يُهدى إليه أم لا؟**

ثم قال ﷺ: **والذي نفسي بيده لا يأخذ رجل مالاً بغير حق إلا لقي الله تعالى بحمله يوم القيامة.**

ولأعرفن رجالاً يأتون يحملون على رقابهم ما أخذوا، إن كان إبلاً له رغاء، أو بقرة له خوار، أو شاة تيعر.

ثم قال ﷺ: **اللهم هل بلّغت؟**[١]

وفي المسند من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً، لا يفكه إلا العدل أو يوبقه الجور**»[٢].

في حديث ابن اللُّتبية عدة مسائل مهمة للأمة منها:

المسألة الأولى: أكبر قضية في هذا الحديث: أن من غلّ شيئاً أو أخذه بغير حقه، فضحه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فضلاً عن معاقبته له، فمن سرق أو غلّ بعيراً، مثلاً، ولو من بيت مال المسلمين فإن الله تعالى يأتي به أمام الناس يوم القيامة، وهو يحمل بعيره، وللبعير رغاء يسمعه أهل الموقف؛ ليكون أشد في فضيحته.. فما بالكم بمن غلّ أكثر من بعير؟ وهكذا الغنم، وهكذا البقر.. وغيرها.

فأين هؤلاء الغلاّل عن أبي بكر الذي مات، وما خلّف إلا ثوبين، وبغلة، وشيئاً من مال، فيقول: اذهبوا لعمر بن الخطاب، وقولوا له: يا عمر، اتق الله، لايصرعنَّك الله كمصرعي.

فلما وصلت التَّرِكة إلى عمر بكى، حتى جلس، وقال: أتعبتَ الخلفاء بعدك يا خليفة رسول الله.

وعمر لما تولّى، ما أخذ قليلاً ولا كثيراً، حتى يقول على المنبر: والله الذي لا إله إلا هو، ما رزأت من مالكم شيئاً إلاّ بُردتين أو ثوبين.. ثوب يلبسه في الصيف وثوب في الشتاء.

وفي حديث في الصحيحين أنه قال ﷺ: «**من غلَّ ذهباً صُفِّحت له**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٧٩، ٧١٩٧)، ومسلم برقم (١٨٣٢)، وأحمد برقم (٢٣٠٨٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد برقم (٩٢٩٠)، والدارمي برقم (٢٥١٥)، وانظر: المشكاة برقم (٣٦٩٧)؛ والسلسلة الصحيحة برقم (٣٤٩).

صفائح فأحرقت به»، وشاهده في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

فالله.. الله أن يراقب الإنسان نفسه مع الله ولا يستصغر أي مسؤولية: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١)، ولو كان درهماً واحداً أو ريالاً.

إنها مسؤولية أمام علاَّم الغيوب، سبحانه وتعالى، عندما يقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

يقول ﷺ: «**اللهم من تولّى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقَّ عليهم فاشقق عليه**»(٢). وهذ الحديث صحيح، فمن رفق ورحم رحمه الله، ومن شقَّ عليهم، وأخذ أموالهم، وأتعسهم، أتعسه الله في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: «**الناس عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»(٣).

وقد عرف الصحابة والسلف عِظَمَ مسؤولية الإمرة فلذلك كانوا يستعفون الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤)، ومسلم برقم (١٨٢٩)، وأحمد برقم (٤٤٨١، ٥١٥٤)، وأبو داود برقم (٢٩٢٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٨)، وأحمد برقم (٢٣٨١٦، ٢٤١٠١).

(٣) أخرجه الحارث في مسنده برقم (٩١١)، وأبو يعلى برقم (٣٣١٥، ٣٣٧٠، ٣٤٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (١٣٠٦)، والبيهقي في الشعب برقم (٧٤٤٥)، وانظر: مجمع الزوائد (١٩١/٨).

يقول الرسول: **اذهب يا فلان أميراً.**

فيقول: اعفني يا رسول الله من الإمرة.

قال ﷺ: «**من استعملنا منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**»، فقام إليه رجل أسود من الأنصار فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، فقال: «**وما لك**»، قال سمعتك تقول كذا وكذا، قال: «**وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما أنهي عنه انتهى**»[1].

فأحجموا جميعاً حتى يقول عمر: ما أحببت الإمرة في الإسلام إلا مرةً واحدة أثناء فتح خيبر لما قال ﷺ: «**لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللّهَ ورسولَه ويحبُّه اللّهُ ورسولُه**»[2].

وكان ﷺ عندما يولي الناس لا ينظر إلى نسب، ولا ينظر إلى أسرة، ولا ينظر إلى قبيلة، فأتقاهم: أقربهم إلى الله، وإلى رسوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولذلك لما طلب العباس عم الرسول ﷺ منه أن يوليه ولاية قال له: «**يا عم نفسٌ تنجيها خير من إمارة لا تحصيها**»[3].

وورد عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته الخلافة[4].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٣٣)، وأحمد برقم (١٧٢٦٤، ١٧٢٧٠)، وأبو داود برقم (٣٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٩، ٤٢١٠)، ومسلم برقم (٢٤٠٦)، وأحمد برقم (٢٢٣١٤)، وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٢٥٤٤)، والخلال في السنة برقم (٦٩)، وابن سعد في الطبقات (٤/٢٧)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٠٠٣).

(٤) أخرجه الطبراني في تاريخه (٢/٥٨٠)، وانظر: تأويل مختلف الحديث للدينوري (١/١٢٢، ٣٠٦)، والاستيعاب (٢/٥٦٨).

فما الذي ينفع الإنسان إذا قدم يوم القيامة، وقد تولّى إمرة الدنيا جميعاً، ثم لم يعدل، ولم ينصف، ولم يتق الله، ثم خسر نفسه؟

فأخذها رضي الله عنه وأرضاه وصية من المصطفى ﷺ.

وأتى أبو ذر إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله وليت فلاناً ووليت فلاناً، فلماذا لم تولني؟

قال: فضربٍ بيده على منكبي ثم قال: **«يا أبا ذر إنك رجل ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها»**[1]، وفي حديث آخر عن أبي هريرة قال: **«إنكم ستحرصون على الإمارة، وستصير ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»**[2].

وأتى سيِّد القراء أبيّ بن كعب إلى عمر فقال: يا عمر كيف تولّي الناس وتتركني؟

قال عمر: والله يا أبيّ.. والله يا أبا المنذر إني أحبك كحبي لنفسي، ولكني تركتك من الإمرة لئلا أدنِّس إيمانك.

فأخذها نصيحةً من عمر، فلم يتولّ ولاية حتى لقي الله سبحانه وتعالى.

هذا هو منهج السلف في تهرُّبهم وبُعدهم عن الإمارة، لما علموا عظم مسؤوليتها عند الله يوم القيامة.

قال الخليفة لأبي حنيفة: تولّ القضاء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٥)، وأحمد برقم (٢١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٨)، وأحمد برقم (٩٤٩٩، ٩٨٠٦)، والنسائي برقم (٤٢١١، ٥٣٨٥).

قال: لا أصلح له.

قال: أنت كاذب.

قال: كيف تولّي كاذباً!

وورد أن الإمام مالك أرادوه للقضاء، وهو أقل من الولاية. فرفض.

ولما تولّى إسماعيل بن علية القضاء كتب له ابن المبارك: ويلك من الله إن في الحديث: «**القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة**»[١].

فانظر أن تكون من الاثنين.

فكتب لابن المبارك: ما فهمت ما تقول!

قال ابن المبارك: أبى هذا إلا أن نقشر له العصا، فكتب له قصيدة جاء فيها.

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد به أموال المساكين

أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين

إن قلتَ أخطأت فقل لي ... زلّ حمار العلم في الطين

فلما قرأ القصيدة عرف المعنى فبكى، ثم دخل على هارون الرشيد وطلب العزل من القضاء.

ولكن هذا ليس على إطلاقه، فإن كان هذا المنصب أو الدائرة أو المكان بحاجة لك، وأنت، إن شاء الله، من أصلح الموجودين، فلا تتأخر عن توليه.. فقد ولىٰ رسول الله ﷺ الولاة والجباة، وتولى الخلفاء الأربعة الإمارة، وضابط ذلك القيام عقبها، وتقوى الله فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٥٧٣)، والترمذي برقم (١٣٢٢)، وابن ماجه برقم (٢٣١٥)، وانظر: المشكاة برقم (٣٧٣٥).

وقال عمر لأبي هريرة: تولّ الإمرة.

فقال: والله لا أتولى، أخاف ثلاثاً واثنتين.

قال: قل خمساً!

قال: لا، أخاف ثلاثاً واثنتين.

قال: ما هي؟

قال: أخاف أن يُجلد ظهري، ويؤخذ مالي، ويُسفك عرضي. وأخاف في الآخرة أن يؤتى بي مغلولاً، وأن أرد على وجهي في النار.

قال عمر: يا ابن أم أبي هريرة، أأنت خير أم يوسف الذي يقول: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

قال: يوسف كريم ابن كريم ابن كريم.

وأنا ضعيف ابن ضعيف ابن ضعيف! أو كما قال. وقد صدق، رضي الله عنه، فمن وجد في نفسه قوة وأمانة فليتول المنصب، وإلا فليهرب منه.

المسألة الثانية: أنه ﷺ كان لا يترك الصدقات في أيدي الناس يتلاعبون بها، بل كان يرسل عمّاله لجمعها.

ففي الحديث أنه أرسل معاذاً إلى اليمن، وكان مما قال له: **«وأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ في فقرائهم»**[1].

وممن أرسلهم ﷺ عمر بن الخطاب لجمع الصدقات من الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧)، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

فمرَّ بالناس جميعاً، وقال: يا رسول الله، كل الناس دفعوا إليّ الصدقة إلا ثلاثة.

قال: من هم؟

قال: عمك العباس، وخالد بن الوليد، وابن جميل.

قال: أما عمي.. أما علمت، يا عمر، أن عمَّ الرجل صنو أبيه، هي عليّ ومثلها (لأن العباس أسلف الرسول ﷺ لسنتين، فاستحيا أن يقول أعطيتها للرسول ﷺ فأمسك الصدقة).

وأما خالد بن الوليد، فإنكم تظلمون خالداً، لقد احتبس أدرعه وأعتده في سبيل الله.

وفي بعض الروايات قال خالد: هي وقف في سبيل الله.

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكي المال مَنْ هو باذله

وأما ابن جميل فما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله[1].

فالشاهد أن الرسول ﷺ كان يرسل أصحابه، لكن يُرسل الأُمناء، وأهل الاستقامة.

فيُشترط فيمن يتولّى على الزكوات، والصدقات، والتبرعات، أن يكون فيه خصلتان: القوة والأمانة.

كما كان موسى، عليه السلام، عندما قالت فيه ابنة الرجل الصالح: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. فأمانة بلا قوة ضعف، وقوة بلا أمانة فجور.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٦٨)، ومسلم برقم (٩٨٣)، وأحمد برقم (٨٠٨٥)، وأبو داود برقم (١٦٢٣)، وغيرهم.

وأرسل الرسول ﷺ عبدالله بن رواحة إلى اليهود ليشاطرهم النخل، ويخرّص نخلهم.

فلما وصل إليهم.. جمعوا أموالاً ليرشوه!

سبحان الله! ما وجدتم إلا عبدالله بن رواحة الذي ينتظر الموت صباح مساء في سبيل الله، ولا يريد الدنيا إلا لمرضات الله؟

أما وجدتم إلا صحابياً من أصحاب الرسول ﷺ؟

فأتوا، وقالوا يا ابن رواحة: خذ هذا المال وراعنا في الخرص.. فاحمرّ وجهه حتى أخذ ينتفض، وقال: يا إخوان القردة والخنازير، والله الذي لا إله إلا هو إنكم أبغض عندي من أمثالكم، وإن هذا لا يحملني على الحيف ـ يعني على ظلمكم ـ، والله لا أظلمكم ولا آخذ قِيد أنملة.

قالوا: بهذا قامت السموات والأرض، أي بهذا العدل قامت السموات والأرض.

المسألة الثالثة: محاسبة العمال، فحقٌّ على المسلم الذي يتولى ولاية أن يحاسِب من تحت يده من رؤساء المكاتب، ومن المسؤولين عن الأقسام، والشعب، والدوائر، ليلقى الله وقد حاسبهم، فإنّ ترك الأمور دون رقابة، ولا محاسبة، فمعناه: الوهن، ومعناه: الفشل والضياع.

والرسول ﷺ في هذا الحديث ـ حديث ابن اللُتبية ـ حاسب عماله، وسأل عن المال، وعن الزكاة.

ويقاس على ذلك من كان مسؤولاً في كلية، أو مدرسة، أو معهداً، أو ثانوية، أو دائرة حكومية، أو مصلحة، أو شركة، أو مؤسسة، فعليه أن يتفقد دائماً مَنْ تحتَ يده بالحساب، وبالجلسة، والبحث عن أخبارهم، ومتابعة دوامهم، وحضورهم وذهابهم، وأدائهم

للدروس، وتحضيرهم للمحاضرات، فإن الله سوف يسأله عن رعيته وعن أساتذته، وعن مَنْ تحت يده. وقصص محاسبة عمر، رضي الله عنه، لعماله كثيرة..

ومرَّ يوماً فرأى عمارة تُبنى من جُصٍّ في المدينة فقال: لمن هذه؟

قالوا: لواليك على بلدة كذا في الشام.

قال: أبت الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها! والله لا يتولى لي ولاية.. ثم عزله.

وأتاه أحد ولاته، واسمه: الحارث بن زياد.. فلما رآه يلبس المرقع، ويأكل الخبز والزيت، قال له: يا أمير المؤمنين غيرك أولى بهذا منك!

فقال: ثكلتك أمك، إني كنت أظن أنك خير من هذا، اذهب والله، لا تلي لي ولاية أبداً!

المسألة الرابعة: هدايا العمال غلول، ورد ذلك من حديث أبي حميد الساعدي، رضي الله عنه وأرضاه، عن رسول الله ﷺ[1]. فالهدية التي تقدَّم للعامل وللوالي وللمسؤول من أحد الناس هي رشوة.

لأنه لولا منصبه لما أُهدي له هدية، كما قال الأول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   لطالما استعبد الإنسان إحسانٌ

فالقلوب يستعبدها الإحسان والهدايا دائماً.

كان المغيرة بن شعبة أميراً في الكوفة، فجعل خادمه عند الباب وقال: لا تُدخل أحداً إلا من آذن أنا بدخوله.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣٠٩٠)، والبزار برقم (٣٧٢٣)، وانظر: مجمع الزوائد (٤/٢٠٠).

فأدخل مَن أذن له إلا واحداً أتى فعرفه فأدخله.

فقال المغيرة: لماذا أدخلته؟

قال: أدخلته لأمر.

قال: ولماذا؟

قال: إنه أحسن إليّ يوماً من الأيام.

قال: أحسنت، إن المعروف ينفع حتى في الكلب.

لكن استثنى الفقهاء إذا كان بينهما هدايا من قبل، كأن يكون حبيباً له، وليس عنده معاملة له، ولا مشكلة، ولا شيئاً من أمور الدنيا، فله أن يُهدي إليه، ويأخذ هديته.

والرشوة لها أقسام وهي:

١ ـ هدية العمال.

٢ ـ الولائم التي تقام من أجله.

٣ ـ ما يقدم له من الخدمات.

٤ ـ إكثار الزيارة له حتى يصادقه.

٥ ـ مجاورته.

المسألة الخامسة: من مسائل الحديث: التعميم في الإنكار بلا تشهير، فنحن أُمرنا أن نكون هيِّنين ليِّنين للمسلمين، وألا نشهِّر بالناس، ولا نعلن الأسماء على المنابر، فالرسول ﷺ يعرف أنه ـ أي العامل ـ عبدالله بن اللتبية، ويعرف أنه أزْدي من أزد شنوءة، لكنه لم يقم أمام الناس يوم الجمعة، ويقول: يا أيها الناس، اسمعوا، أرسلنا عبدالله بن اللتبية إلى بني سليم قبل أيام ففعل وفعل!!

أبداً.. فأسلوبه ﷺ أسلوب الحكمة والمصلحة، وعدم جرح

القلوب.. لئلا يخسر الناس، لعل المخطىء أن يتوب بسرٍّ ودون تشهير.

المسألة السادسة: جواز الخطبة للحاجة، فقد كان ﷺ إذا سمع أمراً حادثاً للناس، أو يُحتاج إلى التنبيه عليه قام وخطب الناس.

تكسف الشمس، فيقول الناس: كسفت لموت إبراهيم ابنه ﷺ.

فقام وأعلن أنها لا تكسف لموت أحد ولا لحياة أحد.

يأتي الناس فقراء فلا يجدون من يعطيهم، فيقوم ﷺ ويخطب لعل أحداً أن يساعدهم.

المسألة السابعة: الهدية وما ورد فيها:

ورد قوله ﷺ: «**تهادوا تحابُوا**»(١) وهو حديث حسن.

وورد في حديث حسن آخر: «**الهدية تسلُ السخيمة**»(٢)، والسخيمة هي ما يأتي في القلب من أحقاد بين الناس.

فحبذا أن تجعلها دَيْدَنك مع جيرانك ومع أقاربك، فتهدي إليهم، ولو شيئاً قليلاً؛ لأنها تسل السخيمة وتُذهب الجفاء، وهي أحسن من كثير من المال.

وقف ابن عباس، رضي الله عنه وأرضاه، عند زمزم في الشمس، فأتى أعرابي فظلَّل ابن عباس بمظلته، وابن عباس يشرب، ثم ذهب الأعرابي، وذهب ابن عباس.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٩٤)، وأبو يعلى برقم (٦١٤٨)، والبيهقي في الشعب برقم (٨٩٧٦)، وابن عدي في الكامل (١٠٤/٤)، وانظر: الإرواء برقم (١٦٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (١٥٢٦)، وابن عدي في الكامل (٢٧٨/٢)، وابن حبان في المجروحين (١٩٤/٢)، وانظر: تلخيص الحبير لابن حجر برقم (١٣١٤)، ومجمع الزوائد (١٤٦/٤).

وبعد سنوات، أتى الأعرابي، وقال: يا ابن عباس، لي عندك يدٌ أريد أن تكافئني بها.

قال: ما هي؟

قال: رأيتك مع الحجَّاج تشرب من زمزم، وقد صَهَرَتْكَ الشمس، وقد ظلَّلتك بكسائي.

قال ابن عباس: أهلاً وسهلاً، ثم أجلسه بجانبه، فأغدق عليه من المال والعطاء.

وقد كان الرسول ﷺ يقبل الهدية، ويثيب عليها، أي: يكافىء عليها.

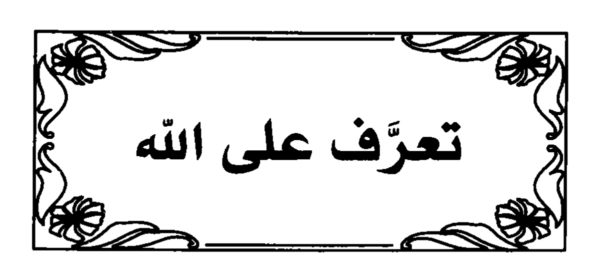
فيقول ﷺ: **«لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع لقبلته»**[1].

وهذا من تواضعه ﷺ.. فالحكمة: أنك تقبل الهدية إذا علمت أنه لا يترتب عليك مفسدة في عرضك ولا في دينك، لأنك إذا رددت الهدية وَجَدَ صاحبها عليك، وكان هذا سوء تعامل مع الناس.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد.



(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٦٨، ٥١٧٨)، وأحمد برقم (٩٢٠١، ٩٨٥٥، ٩٨٨٣).



تعرَّف على الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

إخواني في الله، يقول ﷺ في حديث طويل: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة**»(١).

وهذه الوصية قالها أخشى الناس لربِّ الناس، وأعلم الناس بما لرب الناس من جلال وكمال، وأصدق الناس في الوصية للناس. وهي من حديث طويل؛ حيث ركب ابن عباس، رضي الله عنهما، مع رسول الهدى ﷺ على حمار.

فقال لابن عباس، وهو في مقتبَل العمر، شاب في أول الطريق لا يعلم ما الله صانع به، فاختلسها رسول الله فرصة، واهتَبلها سانحة نادرة، فقال لابن عباس: «**يا غلام**».

فالتفت الغلام، واستمع الغلام، وأنصت الغلام.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، والحاكم برقم (٦٣٠٤)، والبيهقي في الشعب برقم (١٠٠٠٠)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

قال: **«يا غلام إني أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»**[1] رواه الترمذي بسند صحيح.

ما أحسن الحديث!

وما أعظم الوصية!

وما أجلَّ الخطاب!

تعالوا معنا أيها الناس إلى دعوته ﷺ، وكيف علّم أصحابه أن يعرفوا الله في الرخاء ليعرفهم في الشدَّة.

وهذه سنَّةُ الله في الخلق: أن من تعرَّف على الله في الرخاء عرفه في الشدة، ولذلك كانت أمنية الصالحين قديماً وحديثاً، أنبياء ومن دونهم، أن يحفظهم الله في الشدة.

● يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢]، طمع في رحمة الله، ونسي جهوده وبذله، ونسي الصالحات التي قدّم، وعدّ نفسه مذنباً، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢]. وإبراهيم عاش الرخاء حافظاً لله يوم أعرض الناس عن الله، كان مصلياً متوجهاً موحِّداً حنيفاً مسلماً، ولم يكن من المشركين.

الناس يسجدون للأصنام، وهو يسجد لله.

الناس يتعلقون بالأوثان، وهو يتعلَّق بالله.

---

(١) انظر: الحديث السابق.

الناس يقدِّسون الخرافة، وهو يقدِّس ربه.

فأوقدوا له النار بعد أن دخل على النُّمرود الكذَّاب الدجَّال.

يقول الله جلَّت قدرته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ألم تر إلى من ضيَّع حدود الله؟

ألم تر إلى من انتهك حُرُمات الله؟

ألم تر إلى من كفر بالله؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، الخالق هو الله، وهو الرازق والمدبِّر.

قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، لا يحيي ولا يميت إلاّ الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلاّ الله، ولا يعلم ما تكسب نفس غداً إلا الله، ولا يعلم بأي أرض تموت إلاّ الله.

قال الكذاب: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

قال: كيف؟

فأخرج محبوسين فأعتق واحداً، وقال: هذا أحييته، وقتل واحداً وقال: هذا أمتّه.

فلم يعترض إبراهيم عليه السلام، على هذا الخطل؛ لعلمه أن الحجة التي سيقذفها في وجهه أشد عليه من هذه، ولن يستطيع أن يرد عليه، وقد نص أهل المنطق والجدل على أن هذا من أعظم أساليب الحوار.

وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

جمعوا لإبراهيم الحطب، وأشعلوا النار، ووضعوه في المنجنيق، وأطلقوه ليهوي في النار، لا صاحب، ولا صديق، ولا ركن، ولا ناصر إلاّ الله.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢].

قال ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم لما أُلقي في النار فنجَّاه الله، وقالها محمد ﷺ لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

فهل قال شبابنا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، لما أتتهم الهموم والغموم، ولما رأوا المعاصي والفتن والحوادث؟ وهل قالته الفتيات والنساء؟

لينقلب الجميع بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

فوقع إبراهيم في النار فأصبحت برداً وسلاماً بفضل الله، لأنه حقَّق «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

● ولد موسى، عليه السلام، في زمن كان فيه فرعون يقتل الأبناء، فأين تخفيه أمه؟

فانقطعت بها الحبال إلاّ حبل الله، فأخذت ابنها ووضعته في تابوت، ثم ألقته في اليم تنفيذاً لأمر الله سبحانه، ثم فزعت لفراقه،

وحزنت فاستأنست لما ربط الله على قلبها.

ولكن أين يذهب موسى، هذا الطفل الصغير، الذي لا يعرف أن يأكل، أو يشرب، أو يتكلم، أو أن يدافع عن نفسه؟

لقد ذهب إلى بستان رجل من الناس، وترك البساتين حول نهر النيل، وذهب إلى بستان الطاغية فرعون!!

فتأخذه الجواري، فيضَعْنَه بين يدي الطاغية المجرم، فأراد قتله، فمنعته آسيا، زوجته المؤمنة الصادقة، التي تعرَّفت على الله في الرخاء فعرفها في الشدة.

يقول أهل العلم: عذَّبها فرعون يوم طلبها أن تشهد أنه الله الذي لا إله إلاّ هو، فكفرت به، وقالت لا إله إلاّ الله.

فسمّر يديها في الأرض، فما وجدت ألماً.

فوضعها في الشمس، فأتت الملائكة تظلها بأجنحتها.

يا حافظ الآمال أنت منعتني ونصرتني
وعَدَا الظلوم عليّ كي يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي متخشعاً لما رآك نصرتني

فلما رأت موسى أحبته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، قال أهل العلم: ما رآك أحد إلا أحبك.

قالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، اترك الطفل، لعله أن يكون ولداً لنا (لأنهما عقيمان).

فقال: قرة عين لك أنت، أما أنا فلا.

قال أهل العلم: والله لو قال فرعون: قرَّة عين لي لأقرَّ الله عينه بموسى.

وعاش موسى عليه السلام، والله يحفظه؛ لأنه كان من المخلِصين، محققاً لقوله: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

ودارت الأيام، وقتل رجلاً خطأً، وفرّ هارباً لا يملك شيئاً، جائعاً مريضاً غريباً.

ولذلك أورد أهل السير أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مَدْين، وسقى للجاريتين عاد إلى الظلّ، ورفع يديه وبكى، وقال: يا رب أنا مريض، يا رب أنا غريب، يا رب أنا جائع، يا رب أنا فقير.

فأوحى الله إليه: يا موسى المريض من لم أكن أنا طبيبه، والجائع من لم أكن أنا مشبعه، والغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والفقير من لم أكن أنا مُغنيه.

وهو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وعاش، وتزوَّج ابنة الرجل الصالح، بعد أن أتته تدعوه لأبيها؛ فقال: تعالي ورائي، ودليني على الطريق.

سبحان الله! يا للحياء! يا للروعة! يا لمراقبة الله!

فهل تصوَّر شبابنا هذا الموقف، موقف موسى والجارية التي أتت تدعوه، ثم هو يكون أميناً معها، وحافظاً لعهد الله.

وهل علم بعض شبابنا هذا المبدأ، وهم الذين أطلقوا نظرهم إلى الحرام، ونظروا إلى الأجنبيات، وانتهكوا الحرمات، وأغضبوا رب الأرض والسماوات، وأكثروا في الخطيئات.

فأرسل الله موسى رسولاً إلى فرعون الطاغية، سبحان الله!

هو يفر من الطاغية، والله يريد منه أن يواجهه في موقف رسالة، وفي موقف تحدي.. فخاف موسى.

ولكن؛ لأنه تعرّف على الله في الرخاء، فقد عرفه في الشدة، فقال له ولأخيه: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وبعد أن تلاقى، عليه السلام، بالسَّحَرة في مشهد رهيب مكشوف أمام الناس، أوجس في نفسه خيفة من سِحرهم، فقال له تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، فنصره الله، وحفظه من كيدهم؛ لأنه تعرّف عليه في الرخاء.

فهرب من فرعون، فطارده الطاغية بجنود كالجبال، إلى أن وصل موسى وقومه البحر، فخاف قومه أن يدركهم فرعون وجنوده، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، لأنه علم أن الله سينقذه هنا، كما أنقذه سابقاً، لأنه تعرّف عليه في الرخاء، فعرفه في الشدة.

فأنقذه الله، كما هو معلوم، وأغرق عدوّه.

● أما يونس بن متى، عليه السلام، فإنه خرج مُغاضباً لقومه، فلما ركب في السفينة، كما تعلمون، جاءها ريح عاصف، يقلبها ذات اليمين، وذات الشمال، إلى أن رمَوه في البحر، بأن استهموا فيما بينهم، أي: اقترعوا.

فأصبح في ظلمة البحر، وظلمة الليل، ثم اكتملت الظلمة بابتلاع الحوت له، فأصبح في ظلمات ثلاث.

إلى من يلجأ؟ إلى من يشتكي؟

فـــقـــال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فأنقذه الله من الكرب، والهم، والشدة، لأنه كان قد عرفه في الرخاء، قال سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

● ويوسف، عليه السلام، لما رماه إخوته في البئر، أصبح يُسَبّحْ، وهو طفل صغير.

قال بعض المفسرين: هدأت الضفادع، والحيتان من التسبيح إلا يوسف، عليه السلام، فأنقذه الله.

فلما ذهب إلى مصر حدثت له الفتنة مع زوجة العزيز.

فهل وقع فيها؟

لا.. حاشاه ذلك، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، لقد عرف الله في الرخاء، فعرفه وقت الفتنة والشدة.

فيا من نظر إلى الحرام؟ ويا من هَتَكَ الأعراض.. هل قلت وقت الفتن، كما قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]؟

إن قلتها فهنيئاً لك وطوبى بفضل من الله ورضوان.

هؤلاء الأنبياء، وغيرهم، كثير كثير، عرفوا الله في الرخاء، فعرفهم في الشدة، وهذه سنّة الله، لا تتغير، ولا تتبدل أبداً، أنَّ من عرفه في الرخاء عرفه في الشدة.

● الذين لم يعرفوا الله في الرخاء:

أما الفريق الذي خالف هؤلاء، فهم لم يتعرَّفوا على الله، وقت الرخاء، فلم يكن نصيراً لهم وقت الشدة.

● ترجم أهل العلم للبرامكة بشيء عجيب، ونبأ غريب.

البرامكة أسرة أعجمية، فوّضها الخليفة هارون الرشيد في الأموال والديار، فبنوا القصور، وبنوا الحدائق، وكانوا يموِّهون قصورهم بماء الذهب، وماء الفضة.

أي بذخ هذا؟ أي ثراء هذا؟

فنسوا الله، وتركوا الصلوات، وارتكبوا الشهوات، وأكثروا من السيئات، وأكثروا من الفواحش، فأمهلهم الله، عز وجل، ثم سلّط عليهم أقرب الناس إليهم هارون الرشيد.

وثقوا بهارون الرشيد، ووثق بهم، أحبوه وأحبهم، لكن كما أتى في الحديث: «**من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أسخط الناس برضى الله رضي الله عنه وأرضى عليه الناس**»[(١)].

فغضب عليهم هارون الرشيد غضبة؛ لأنهم ما عرفوا الله في الرخاء، فلم يعرفهم في الشدة، فأخذ كبيرهم الذي علَّمهم المعصية يحيى بن خالد البرمكي فأنزله في السجن سبع سنوات حتى طالت لحيته، وأظفاره، وشعر حاجبيه، وطال شاربه، وطال كل شيء فيه، حتى أصبح يقول: لا أنا في الدنيا، ولا أنا في الآخرة.

ما رأى الشمس سبع سنوات.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٤)، وابن حبان برقم (٢٧٧)، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (٥٠٠)، وانظر: المشكاة برقم (٥١٣٠).

قال له بعض الناس لما دخلوا يزورونه: ما لك؟

قال: ما عرفت الله في الرخاء فلم يعرفني في الشدة، وقال في رواية عنه: أتدرون بماذا أصابنا الله بهذه المصيبة؟

قالوا: لا ندري.

قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل، غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها.

فيا من تمهلُ في الرخاء.

ويا من قاطع المساجد والصلوات الخمس.

اعلم أن الحفظ في الرخاء معناه الحفظ في الشدة.

يقول ﷺ كما في حديث جندب بن عبدالله البجلي: **«من صلَّى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فالله لا يطلبنَّكم الله مِنْ ذمته في شيء، فإنه من طلبه أدركه، ومن أدركه كَبّه على وجهه في النار»**(١).

كيف يحفظ الله، كيف يرعى حدود الله، كيف يتعرَّف على الله في الرخاء من لم يصلِّ الصلوات الخمس، أو من أخّرها عن أوقاتها، أو من أسرف في تضييعها أو التلاعب بها؟

● أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي: هو: أحمد أهل البدعة، وأحمدنا: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.

كان كريماً في المال، ينفق في المجلس الواحد مائة ألف دينار، وأنفق مرة من المرات يوماً واحداً ألف ألف درهم، لكن ضيّع الله

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٥٧)، وأحمد برقم (١٨٣٢٦، ١٨٣٣٥)، والترمذي برقم (٢٢٢).

وضيّع حدود الله، يقصد بالمال الرياء والسمعة، يقول فيه أبو تمام:

لقد أَنْسَتْ محاسنَ كل حسن   محاسنُ أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرتُ في الآفاق إلا   ومن جدواه راحلتي وزادي

حقد على الإمام أحمد، وأغرى الخليفة المعتصم بجلد الإمام أحمد، فدعا عليه الإمام أحمد.. والإمام أحمد يعرف الله في الرخاء، فعرفه الله في الشدة.

وأحمد بن أبي دؤاد ضيَّع الله في الرخاء، فضيَّعه الله في الشدة.

فقال الإمام أحمد: اللهمّ احبسه في جلده، اللهم عذِّبه قبل موته.

فاستجاب الله للإمام أحمد، فأصاب أحمد بن أبي دؤاد الفالجُ.

فزاره بعض الناس من تلاميذ الإمام أحمد، وقالوا: والله ما زرناك لنعودك، ولكن زرناك شامتين، الحمد لله الذي عذَّبك في جسمك، الحمد لله الذي حبسك في أعضائك، فكيف تجد حالك؟

قال: فأما نصفي هذا، لو وقع عليه الذباب لكأن القيامة قامت، وأما النصف الآخر فلو قُرض بالمقاريض لما أحسست به.

ثم مات.

● أحد الخلفاء العباسيين ذكره أهل التراجم تولى الخلافة فنسي الله.

أخذ حربة فكان يحمِّيها بالنار ويقول: والله لأقتلنّ بها رجلاً.

وحفر حُفَراً (خوانات) وملأها ذهباً وفضة.

قالوا: ما لك؟

قال: أخشى الفقر.

سبحان الله! يخشى الفقر، والغني في السماء.

يخشى الفقر، والرازق في السماء ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

فماذا كانت النتيجة؟

أتى مَنْ بعده، فسلبه الخلافة، واقتاده، وأخذ خزائنه، وأخذ ذهبه وفضته، فأحمى حربته، وأذهب عينيه الاثنتين حتى أصبح أعمى، فقام في مسجد بغداد، مسجد دار السلام يمد يديه ويقول: من مال الله يا عباد الله!!

لماذا؟

لأنه ما عرف الله في الرخاء، فلم يعرفه في الشدة.

ومن هذا المنطلق يا عباد الله ينبغي لنا أن نقف طويلاً عند قوله ﷺ: **«تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**[1]، تعرَّف عليه وقت الصحة أن تصرفها في مرضات المولى سبحانه وتعالى.

وتعرّف عليه في وقت الفراغ أن تصرفه في ما ينفعك من قرآن، وعلم، واجتهاد، وعبادة، وعمل صالح، بدلاً من تضييعه في ما لا يجدي، أو ما يجر عليك ويلات في المستقبل، وليحفظك الله كما حفظت أوقاتك.

يا عباد الله! يا مسلمون.. يا صائمون.. يا مصلُّون.. يا أبناء الذين تعرَّفوا على الله في الرخاء، فعرفهم في الشدة، أما آن لنا أن نعرف الله فيعرفنا؟

إنها وصية المصطفى ﷺ، وإنه درس خالد نوجهه إلى أنفسنا، ثم لإخواننا من كل مسلم ومسلمة، لعلَّهُمْ أن يرعوا حدود الله،

---

(١) هذا حديث الباب وقد تقدم تخريجه.

ويحترموا حرمات الله، ويعظموا شعائر الله ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

إذن وصيته ﷺ بل من أعظم وصاياه: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

والله، لقد أدرك أهل المال أن لا لذة لهم، ولا سعادة إلا في تقوى الله، والله، لقد سكنوا القصور، وعمروا الدور، وركبوا السيارات الفاخرة، لكن لما ضيَّعوا الله ضاعوا ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

ألا إنها وصيته ﷺ، وإنها دعوته ﷺ: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

ونحن، يا شباب الإسلام، ويا حَمَلَة كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، نعيش في رخاء، إي والله، رخاء يتمثل في الأمن، والاستقرار، وبرد العيش، وفي السكينة، والغنى.

فنعوذ بالله أن نغير نعمة الله كفراً، وأن لا نشكر معروف الله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨].

ألم تر إلى الذين هجروا بيوت الله، وهجروا كتاب الله، وهجروا شعائر الله، وعملوا ما يغضب الله، وما يسخط الله؟

ألم تر ما فعلوا بأنفسهم؟ ألم تر كيف يلعبون بالنار، وكيف يسعون إلى الدمار، وكيف لا يخشون الواحد القهار؟ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا

رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

سكنوا وارتاحوا، وأكلوا وشربوا، لكن انتهكوا المحرمات، وأكثروا من السيئات، فغضب عليهم رب الأرض والسماوات، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

سبحان من يعفو ونهفو دائماً ... ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه ... جلاله عن العطا لذي الخطا

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

۞ ۞ ۞



نفائس الأوقات

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسَلين، وإمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين، وحجة الله على الهالكين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد..

فالدقائق الغالية هي حياة المسلم.

فكل دقيقة تمر من حياة المسلم، ومن عمره تُحتسب عليه عند الله عز وجل.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قال أهل العلم في النذير: هو الموت.

وقالوا: هو محمد ﷺ.

وقالوا: القرآن.

وقالوا: الإسلام.

وقالوا: الشيب.

وذُكر عن بعض السلف أنه قال: من بلّغه الله ثمان عشرة سنة، فقد أعذر إليه وأنذر.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«من بلّغه الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه»**[1].

فإذا تفكر المسلم، أنه قد جاءته من الله نِذارة، وإعذار، وجب عليه أن يستغل هذه الدقائق في مرضاة الله الواحد الأحد.

دقات قلب المرء قائلة له — إن الحياة دقائق وثواني
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها — فالذكر للإنسان عمر ثاني

أما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧] فالمعنى ألم نمهلكم؟

ألم نمد لكم في الأجل؟

أما تركناكم تعيشون حتى جاءتكم النذارة؟

أما تركنا لكم مُهلة؟

ولذلك قال بعض أهل العلم: الشيب هو: النذير.

ومن شابت لحيته، أو شاب رأسه، فقد أتاه من الله نذير.

قال سفيان بن سعيد الثوري: من شاب فليشترِ كفناً، وليعدّ للقبر عدته.

ولقد بكى العلماء والصالحون الشيب، وعلموا أنه داعي القبر، وأنه بريد الموت، وأنه سائقٌ إلى الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أحمد: والله ما مثلت الشباب إلا بشيء كان في يدي ثم سقط من يدي.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٩)، وأحمد برقم (٧٦٥٦، ٨٠٦٣).

وقال أبو العتاهية:

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

يقول: يا ليت الشباب أول العمر، يعود إليّ، فأخبره بما فعل بي المشيب، فقد غيّر لوني، وغيّر مهجتي، وحطّم قوتي، وأذاب سكونه شعري، واحدودب ظهري، وأسهرني، وأبكاني.

ولذلك نام شباب مع شيخ كبير في بيته، وكان قد بلغ الثمانين من عمره.

فما نام طول الليل، فهو دائماً في أنين، وزفير، وفي شهيق حتى صلاة الفجر.

فقال له الشباب لما صلى الفجر؟ ما تركتنا ننام البارحة.

فعمل قصيدة يقول فيها:

قالوا أنينك طول الليل يزعجنا ... فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

قال ابن قتيبة: مرَّ شيخ كبير من بني غفار، عليه لحية بيضاء، وعلى صدره، والعرب كان فاجرهم ومؤمنهم، قويهم وضعيفهم، لا يحلقون لحاهم.

فمرَّ على شباب يلعبون في الشارع، فقال أحد الأطفال: يا عم من الذي باعك هذا القوس؟

فدمعت عينا الشيخ وقال: يا بني، هذه اللحية أعطانيها الدهر بلا ثمن، وسوف يعطيك شيباً مثلها.

يعني: اصبر، وسوف تجد مثلها.

ولكن قال الصالحون: من حفظ الله في الشباب حفظه في الهرم.

ولذلك قال ﷺ: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفّت الصحف»**[١].

وفي حديث آخر: **«اغتنم خمساً قبل خمس»** ثم ذكر منها ﷺ **«شبابك قبل هرمك»**[٢].

قال ابن كثير وهو يترجم للمُحِبِّ الطبري الإمام الشافعي الكبير.

يقول: ركب معه شباب في سفينة، فلما اقترب من الشاطىء، قفز من السفينة إلى الشاطىء، فحاول الشباب أن يقفزوا فما استطاعوا، فقالوا له: ما لك وأنت في الثمانين استطعت، ونحن شباب لم نستطع؟

قال: هذه أعضاء حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

وذكر أهل العلم في كتب الحديث وغيرها أبواب الشيب، وعدوه من الإنذارات للمؤمن قبل أن يأتيه نذير الموت.

ولذلك قال أهل السير: وقف عابد من بني إسرائيل أمام المرآة، وكان عمره ثمانين سنة، فرأى شيبة.

وكان هذا الرجل قد أطاع الله أربعين سنة، ثم عصاه أربعين سنة، نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) سبق تخريجه ص: ٨٨.

(٢) سبق تخريجه ص: ٥٩.

لأن بعض الناس بعد أن يستمر في طريق الهداية يتراجع في اللحظات الأخيرة.

فنظر إلى المرآة وقال: يا رب أطعتك أربعين سنة، وعصيتك أربعين سنة، فهل تقبلني إذا عدت إليك؟

فسمع هاتفاً يقول: أطعتنا فقربناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإذا عدت إلينا قبلناك.

لأن بعض الناس، كما قلت، يدركهم الخذلان، فيعود للمعصية بعد الطاعة.

يذكر الذهبي في ترجمة عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، أنه لما تولى الخلافة كان عالماً من العلماء، بل كانوا يعدونه من علماء المدينة.

فلما تولى الخلافة سفك الدم، وسلَّ السيف.

يقولون: أنه أول ما بويع بالخلافة أخذ المصحف، ثم نشره أمامه، ثم قرأ فيه قليلاً، ثم طبقه، وقال: هذا آخر العهد بك!

قال الذهبي معلقاً: اللهم لا تمكر بنا.

فأدركه الخِذلان، والعياذ بالله، لما مكَّنه الله في الأرض.

ولذلك لما أتته سكرات الموت، بكى طويلاً، ونزل من على سرير الملك، فمرغ وجهه في التراب، وبكى، وقال: يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني ما عرفت الحياة، يا ليتني ما توليت الخلافة.

فسمع غسالاً، وهو في سكرات الموت.

وكان الغسال يغسل الملابس، ولا يحمل هموم الرئاسة والإمامة، ولا يخاف من الظلم ولا الإجحاف.

فقال عبدالملك: يا ليتني ما عرفت الحياة، يا ليتني كنت غسَّالاً.

قال سعيد بن المسيب أحد علماء التابعين لما سمع الكلام: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الممات ولا نفر إليهم.

وإنما يتذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، من عقل وفهم عن الله عز وجل.

أما الذي غلبه هواه، فهذا لا يسمع الآيات، ولا يستفيد من المواعظ، ولو أسمعته خطب الدنيا، ومواعظ الدنيا، ومحاضرات الدنيا، فلن يستفيق أبداً.

وبالمناسبة، فالنساء أشد ما يغضبهن في الرجل، هو: الشيب.

يقول حسان بن ثابت:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي　　　فأعرضن عني بالخدود النواضر

فالشيب هذا عدو للنساء.

ولذلك أخذ بعض الناس السواد، وصبغوا لحاهم ورؤوسهم.

وهذا على الصحيح من أقوال أهل العلم أنه محرم؛ لقوله ﷺ في أبي قحافة: «**وجنِّبوه السواد**»[1]، والسر في ذلك كما قال بعض الفقهاء: أنه يوهم الناظر، وأن فيه تدليساً.

ولكن الصبغ يجوز بالورس والحناء والكتم.

هذا على سبيل الاستطراد.

قال بعض الصالحين لما حضرته الوفاة: اللهم ارحم شيبتي، فإني

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٠٢)، وأحمد برقم (١٣٩٩٣، ١٤٠٤٦)، وأبو داود برقم (٤٢٠٤)، وغيرهم.

سمعت في الحديث أن الرسول ﷺ يقول: **«إن الله يستحي أن يعذِّب شيخاً في الإسلام»**[١].

وذكر أهل العلم في ترجمة يحيى بن أكثم، أحد العلماء القضاة، وقد تولى القضاء للمأمون، لكنه ما حُمد كثيراً في القضاء، فسياسته في القضاء ما كانت محمودة، إنما كان محدثاً صالحاً فيه خير.

فلما توفي رؤي في المنام قالوا: ما فعل الله بك؟

قال: والذي نفسي بيده، لقد أوقفني بين يديه، تبارك وتعالى، ثم قال الله: وعزتي وجلالي لولا شيبتك لعذبتك بالنار، ثم أدخلني الجنة[٢].

وهذا لا يعني أن الشيخ الكبير له أن يفعل ما شاء؛ لأن الله يستحي من شيبته، لا.

بل معناه أن الله يستحي منه إذا استحى من الله.

وإلا ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»**، منهم: **«شيخ زانٍ»**[٣]، أي: شيخ كبير في السن ويزني، وقد شددت فيه العقوبة، لأنه قد انقطعت دواعي هذا الذنب في قلبه، فإن حدثت فإنما هي أمارة على خبث الطوية، وفساد القلب، نسأل الله أن يعفينا والمسلمين.

فهذا ليس له عند الله قَبول، ولا يكلمه الله يوم العرض الأكبر، ولا ينظر إليه ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

ونظر إبراهيم، عليه السلام، في المرآة فرأى شيبة بيضاء، فقال: يا ربي ما هذا البياض؟

---

(١) انظر: كشف الخفاء برقم (٧٤٢).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠٧)، وأحمد برقم (٩٣١١، ٩٨٦٧).

قال: هذا وقار يا إبراهيم.

قال: اللهم زدني وقاراً.

وقالوا عن الإمام أحمد أنه كان لا يقوم لأحد من الناس، لا لملك، ولا لوزير، ولا لسلطان، ولا لغني، ولا لوجيه، إلا إذا رأى شيخاً كبيراً شابت لحيته، فإنه يقوم، فيقبله ويعانقه، ويجلسه بجانبه.

وفي الحديث: إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم**»(١).

وثلاثة يوقَّرون: السلطان المقسط، أي: العادل، وحامل القرآن، أي: طالب العلم العامل بعلمه، والشيخ الكبير.

هؤلاء يوقرون لما أعطاهم الله عز وجل.

ومقصودي من هذا، أيها الأحبة، أن نصل إلى مسألة حفظ العمر مع الله عز وجل، فإن كثيراً من الناس ذهبت لياليهم من بين أيديهم سدى، فلم يستغلوها في الطاعة، فبكوا وندموا.

يقول سبحانه وتعالى عن المفرطين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] قال أهل العلم: يقولون يا ويلتنا على ما ضيعنا في حياتنا من الأوقات الثمينة.

دخل عمر، رضي الله عنه وأرضاه، المسجد فوجد رجلاً حزيناً جالساً في المسجد فقال: ما لك؟

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٤٣)، وابن أبي شيبة برقم (٣٢٥٦١)، والبيهقي في الشعب برقم (٢٦٨٥، ١٠٩٨٦)، وفي السنن الكبرى برقم (١٦٤٣٥)، وانظر: المشكاة برقم (٤٩٧٢).

قال: فاتتني صلاة الليل البارحة.

أما نحن، فالكثير تفوته صلاة الفجر، وقلبه بارد لا حزن فيه، ولا غضب، ولا هم ولا خوف، فهو كما قال المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميِّت إيلام

قال عمر: سبحان الله، قم فصلِّ، أما سمعت الله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

فمن فاته ورده في الليل، وقراءة القرآن فليعوِّضه في النهار.

ومن فاته في النهار.. فليعوِّضه في الليل.

الجنيد بن محمد أحد الصالحين كان يُسبِّح ثلاثين ألف تسبيحة. ذكرها أهل العلم في ترجمته، فلما حضرته الوفاة أخذ يقرأ القرآن، وهو في سكرات الموت، فقال له أبناؤه: تقرأ القرآن، وأنت مشغول بالموت؟

قال: وهل هناك في الدنيا من هو أحوج مني إلى العمل الصالح؟

فيا إخوتي في الله، إن الدقائق الغالية في حياة المسلم لا تُقَدّر بثمن.

وقد ذكر أهل العلم في حفظ الوقت نماذج أذكر شيئاً منها:

كان كرز بن وبرة، أحد الصالحين، يقول له أصحابه: اجلس معنا نتحدَّث معك.

قال: احبسوا الشمس.

قال الحسن البصري: والذي نفسي بيده، ما أصبح صباح إلا نادى: يا ابن آدم اغتنمني، فوالله لا أعود لك إلى يوم القيامة.

قال الجاحظ في كتاب (الحيوان): وأحسن ما أنشد العرب في حفظ الوقت:

أَشابَ الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغداة ومرُّ العَشِي
إذا ليلة هرمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتي
نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

ويصدق هذا الكلام قوله ﷺ في الصحيح: «**يؤتى بأنعم أهل الأرض فيغمسه الله في النار غمسة ثم يقول: هل رأيت نعيماً قط؟**.

قال: لا والله يا رب ما مرَّ بي نعيم قط».

ذهبت الدور والقصور، وذهب النعيم، وبقيت المعصية، تلاحقه حتى أدخلته النار.

«**ويؤتى بأتعس أهل الدنيا من أهل الجنة**» هذا الرجل الضائع، الذي ينام في الخيمة، ولا يجد إلا كسرة الخبز، ولا يجد إلا جرعة الماء، «**فيغمسه الله غمسة في النعيم ثم يقول الله له: هل مر بك بؤس قط؟**

قال: لا والله يا رب ما مرَّ بي بؤس قط»[١]، وهذه هي الحياة.

ولذلك: سل مَنْ تنعَّم، وهو في الحياة الآن، هل تتذكر النعيم السابق الذي مرّ بك؟

سيقول: لا.

لأنه لا يبقى إلا طاعة الله الواحد الأحد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٠٧)، وأحمد برقم (١٢٦٩٩، ١٣٢٤٨).

ولذلك تواصى بها الصالحون قديماً وحديثاً.

قال سليمان عليه السلام: تعلَّمنا ما تعلَّم الناس، ومما لم يتعلَّموا، فما وجدنا كتقوى الله.

وقال عون بن عبدالله لزملائه، وهو يودعهم: أوصيكم بوصية: عليكم بتقوى الله، فإن المتقي لا وحشة عليه.

ولذلك قليل العمل الصالح يعادل جبالاً من نعيم الدنيا، لو كانت في ميزان الحسنات.

فلذلك لما مرّ سليمان، عليه السلام، ـ كما يُروى ذلك في الأثر ـ وهو راكب على بساط الريح يحمله إلى أين شاء بواسطة الريح التي سُخّرت له، كما قال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [صَ: ٣٦]، أي: حيث أمرها تتجه به حسب ذلك الأمر.

فمر يوماً من أمام فلاح في مزرعته، فلما رآه الفلاح، وهو في أبهته، أعجبه المنظر، فقال: سبحان الله، لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً.

فسمعها سليمان، عليه السلام، فأمر بالنزول عنده، فلما قابله قال: والذي نفسي بيده لقولك: سبحان الله، خير مما أوتي آل داود.

ويؤيد ذلك ما ثبت في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»[١].

ولذلك قال الله عز وجل عن إدريس، عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥)، والترمذي برقم (٣٥٩٧).

يقولون: كان خياطاً، وكان بين أن يدخل الإبرة، ويخرجها، يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم يُخْرج الإبرة.

فأوحى الله إليه: يا إدريس، وعزتي وجلالي لأرفعنك مكاناً علياً.

قال: يا رب لماذا وأنا مذنب؟ يعني: معترف بالتقصير.

قال: إنه يُرفع عملك مع عمل أهل الدنيا فتفوقهم بالتسبيح والتهليل.

وهذا تسديد من الله: أن تجد العبد دائماً يسبِّح ويهلِّل.

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: كان خالد بن معدان يُسبِّح في اليوم مائة ألف تسبيحة.

وهذا توفيق من الله عز وجل.

تجد بعض الناس دائماً يتمتم بالتسبيح حتى يقول له المنافقون: هذا موسوس!

كان أحد الصالحين يُسبِّح.

فقال له أحد الشباب: يا موسوَس.

فقال في قصيدة:

ومن هُيامي بكم قالوا به مرض ... فقلت لا زال عندي ذلك المرض

يقول: من ذكري لك يا رب يقول الناس إن بي مرضاً، فقلت: لا زال بي هذا المرض.

وقال ابن القيم في بيت جميل:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... ونترك الذكر أحياناً فننتكس

ولذلك تجد الصالحين دائماً يتمتمون بالذكر.

قال النووي: من راقب الناس ـ أي: خاف من كلامهم ـ في هذه الأمور فاته أجر عظيم.

لكن الواجب: أن تخلص العمل لله ثم لا يهمك قولهم، ولا تعليقاتهم، بل اذكر الله كثيراً، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

أسأل الله لي ولكم أن يوفقنا إلى أن نستثمر أوقاتنا، ودقائقنا الغالية في طاعته ومرضاته.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.





مثل الدنيا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد..

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الرقاق (باب) مثل الدنيا في الآخرة وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم أخرج عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٢، ٦٤١٥)، ومسلم برقم (١٨٨١)، وأحمد برقم (٢٢٣٥٠، ٢٢٣٦١).

في هذا الحديث مسائل:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

أما اللهو فكأنه خاص بالقلوب فهي تلهى.

واللعب خاص بالجوارح.

ومثل الدنيا كما يقول بعض أهل العلم: كمثل صبيان أتوا في يوم من الأيام يلعبون، فبنوا لهم قصوراً، وعَمّروا دوراً، وزرعوا شجراً، فلما غربت عليهم الشمس خرّبوها، وهذا كمثل الدنيا.

قال عزَّ من قائل: ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

قال أهل التفسير: هذا المثل. مثل أرض مربعة، نزل عليها الغيث، فأنبتت من كل زوج بهيج، فأنبتت الورود، وأنبتت الأشجار، وتدلت الأغصان اليانعة، فأعجب هذا المنظر الزرّاع، فلما مضت عليها أشهر، هبت عليها الريح، وأذبلتها الشمس، فتكسرت عيدانها، وذبلت ورودها، وذهبت بهجتها، ففنيت، وأصبحت قاعاً صفصفاً، فهذا مثل الدنيا.

بينما تمر بالإنسان، وهو في صحة وعافية، وأولاده مجتمعون عنده، وهو مُصَدَّر، ووجيه في الناس، وماله موفور، وبدنه قوي، ثم تلقاه بعد حين، وإذا هو مريض، أو قد مات، وقد تخرَّمت الأيام صحته وعافيته، وقد أصبح في حالة بئيسة.

قال بعض أهل العلم: أتت امرأة من آل النعمان بن المنذر، وكانوا في صحة، وأموال عظيمة، حيث أنهم كانوا من ملوك العرب.

فقال لها رجل من العرب: يا فلانة، ماذا فُعِل بكم؟

فقالت: أصبحنا وما في العرب بيت أغنى منا، ثم أمسينا وما في العرب بيت أفقر منا.

لقد سُلِب ملكهم في ليلة.

وقد مرَّ ابن مسعود بقصر في الكوفة، وقد التمعت أنواره، وكان فيه حفل، وفيه مظاهر البهجة بادية، فقال: ما هذا؟

قالوا: أُناس قد اجتمعوا عند أبيهم على زواج وعُرس، فأحبوا أن يحتفلوا.

قال: ما امتلأت دار حَبرة إلا امتلأت عَبْرة.

يعني: ما امتلأت دار بالبهجة والسرور والفرح، إلا امتلأت عما قليل بالنكد والهم والغم والحزن.

فإذا أصابتك مصيبة، فاعلم بأنها قد وقعت على غيرك من الناس، ودخلت كافة البيوت.

وكل هذه المصائب توصل العبد إلى الموت، والموت سهل لا بد أن يُقدم عليه، لكن المصيبة الكبرى التي توصل العبد إلى جهنم: أن يُحْجب القلب عن الله عز وجل، وأن يُطبع على القلب، فلا يعي، ولا يفهم، ولا يعقل.

فهذه هي أعظم المصائب، فلا مصيبة بعدها.

ولذلك هَوّن على نفسك إذا أُصبت بمصيبة دنيوية لا دينية.

يقول الأندلسي في الدنيا:

إذا هدمت فزدها أنت هدماً   وحَصّن أمر دينك ما استطعت

يقول ابن القيم: إن مَرَضَ الجسم سهل وبسيط ومآله إلى الموت، وأما مرض القلب فمآله إلى جهنم، نعوذ بالله من جهنم.

فإن الله تعالى ما ذكر مرض الجسم في القرآن الكريم إلا في معرض الأعذار والرخص.

أما مرض القلب، فذكره الله تعالى في معرض العقيدة، والتحدث عن الآيات، وعن الكفر، والنفاق، نعوذ بالله من ذلك.

يقول الله عن أصحاب المرض القلبي: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، بينما أجسامهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقين: ٤]، وإذا هم مرضى قلوب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الحديد: ٢٠].

وهذا جلب للانتباه فهو يقول: ﴿اعْلَمُوا﴾ [الحديد: ٢٠] إن كنتم تعلمون، واعقلوا إن كنتم تعقلون، وتفكروا إن كنتم تتفكرون.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] وهذا للحصر، واللعب في الجوارح، واللهو في القلب.

﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ [الحديد: ٢٠] قال أهل التفسير: تفاخر، وتكاثر بالمطاولة والمنافسة.

ولذلك فأهل الدنيا إذا أراد بعضهم أن يغيظ بعض تطاول عليه في البناء، أو في المال، أو في المظهر.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] قال أهل العلم: من أعجبه ماله، أو كثر عليه ماله، وألهاه عن طاعة الله، فليتدبَّر قصة قارون، فقد أهلكه الله، وقطع دابره، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ ما النتيجة؟ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وهكذا من تفاخر بأولاده، وتباهى بهم في المناسبات عند أقاربه وأصحابه، كما كان يفعل الوليد بن المغيرة في الجاهلية، حيث كان له مجموعة من الأولاد يقرب من العشرة، وكان يتباهى بهم في نوادي قريش ومنتدياتها، حيث كانوا يشهدونها معه، فلذلك قال تعالى عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣].

أي: يشهدون معه المناسبات.

ولكن ذلك لم ينفعه عند الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]. قال ابن كثير: الغيث إنما يُطلق على المطر إذا أتى بعد سَنَة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] لأن الأرض أغيثت به.

﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] من هم الكفّار؟

الرأي الوجيه أنهم: الزرّاع.

وقيل: الكفار هم أهل الكفر، فإنهم أعجب الناس بالدنيا، ولذلك لا تجد الكافر إلا كالحمار، لا يعجبه إلا مظهر الدنيا، وهذا موجود في المنافقين، وفي الفَسَقَة، وفي الكفار، فإنه إذا دخل البلد لا ينظر إلا إلى القصور، والمتنزَّهات، والمطاعم، والمشارب، والأسواق، والفحش، نعوذ بالله.

ثم قال عزَّ مِن قائل: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ [الحديد: ٢٠] يهيج أي: ييبس ويذبل ويضمحل، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠]. فالدنيا مثل هذا النبات، عما قليل تصفرّ، ثم تتحطم.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، عذاب شديد للكفار، ومغفرة ورضوان للمؤمنين.

ولذلك قال عزَّ مِن قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، لأن بعض الناس قد يسعى لها رياءً وسمعة، ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء: ٢٠].

وأما قوله ﷺ: «**لَموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها**». فهذا الحديث له سبب، وهو: أن الرسول ﷺ لما أرسل جيشه إلى مؤته عيّن عليه ثلاثة قواد وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة.

فقال ﷺ: «**إذا قُتل زيد فجعفر، فإذا قُتل جعفر فابن رواحة**»[1].

فتخلّف ابن رواحة لما خرجوا في الصباح.

فلما صلّى الرسول ﷺ الجمعة، سلّم عليه ابن رواحة.

فقال ﷺ: «**أما خرجت مع أصحابك في سبيل الله**»؟

قال: يا رسول الله، تخلّفت لأرى وجهك على المنبر، ليكون آخر العهد بك، وبقيت لأودعك.

فدمعت عيناه ﷺ، ودمعت عينا ابن رواحة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

حتى كان يقول:

خلف السلام على امرىء ودعته   في النخل خير مودع وخليل[(١)]

يقول: بقي السلام على محمد ﷺ في النخل في المدينة.

فقال ﷺ: **«لغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»**.

أما الذي أعدَّه الله في الجنة للصالحين، فهذا لا يستطاع أن يتكلم عنه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

وأما الحقيقة فليس من الجنة شيء في الدنيا.

وقد ذكرت طرفاً من أخبارها في رسائل أخرى من هذا المجموع.

قال رسول الله ﷺ: **«هل من مشمِّر للجنة، فإنها والذي نفسي بيده قصر أبيض ونور يطرد وماء ينسكب وزهرة بيضاء»**، أو كما قال ﷺ.

فقال الصحابة: نحن المشمِّرون.

قال: **«قولوا إن شاء الله»**[(٢)].

أما قوله ﷺ: **«لغدوة في سبيل الله»** أي: لغزوة، أو قتال ساعة في سبيل الله.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١٤٩/٢)، والسيرة النبوية (٢٤/٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٤٣٣٢)، والبزار برقم (٢٥٩١)، والطبراني في مسند الشاميين برقم (١٤٢١)، وابن حبان برقم (٧٣٨١)، وانظر: مصباح الزجاجة (٢٦٥/٤)، والسلسلة الضعيفة برقم (٣٣٥٨).

ويرى بعض أهل العلم: أن من غدا إلى المسجد، فهو في سبيل الله، ومن راح من المسجد، فهو في سبيل الله، ومن جهّز غازياً، فهو في سبيل الله، ومن قال كلمة تنفع المجاهدين، فهو في سبيل الله.

فمن لم يستطع أن يجاهد بنفسه، فليجاهد بماله، فمن لم يستطع بماله، فليجاهد بلسانه، فيمدح الجهاد، وينشر مدح الاستشهاد في المجالس، ويذم الكفر، والكفَرَة، والشيوعيين، والملاحدة.

ومن لم يستطع بلسانه فلينو بقلبه نية طيبة، وليجاهد نفسه في ذلك.

قيل لابن تيمية وهو يصعد جبلاً في دمشق: ما لك تصعد الجبل وتنزل؟

قال ما معناه: أتخيل أن عدواً يغير علينا، فأريد أن أتجهز له.

فهذا هو تحديث النفس بالجهاد.

وقالوا لخالد بن الوليد: ما هي أعظم لذة لك؟

قال: والله، إن أعظم لذة عندي هي ليلة بِتُّها في يوم اليرموك، عندما قمت في الليل، فإذا جميع الجيش قد نام من كثرة التعب والإعياء، فأيقظت امرأتي، وقلت لها: أتريدين ليلة من ليالي الجنة في سبيل الله؟

قالت: نعم.

قلت: قومي لنحرس هذا الجيش.

فقامت فتوضأنا في ليلة شاتية، لا يعلم بردها إلا الله، والناس ملتحفون بأغطيتهم، ثم قمت أحرس الجيش، فانهلّت السماء علينا بالغيث، فكنت أُلحّف بعض الصحابة بالغطاء وأغطيهم.

فوالله ما أعد ليلة أعظم عندي لذة في الدنيا من تلك الليلة.

هذه بعض لمحات حول معاني هذا الباب الذي عقده البخاري في «صحيحه».

أسأل الله لي ولكم الجنة، وأن نرى فيها ما لم نره في الدنيا، وأن نسمع ما لم يطرق مسمعنا إلى الآن، وما لم يخطر على قلب أحدٍ منا.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.





يا مُتْعِبَ الجسم

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأشهد أنْ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ مُحَمّداً عَبده ورسوله.. بعثه الله بالهدى ودين الحق، فبلَّغ الرِّسَالة، وأدّى الأمانة، ونصَحَ الأمَّة، وجاهدَ في الله حَتى أتاهُ اليقين، فصَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

يا مسلمون... يا صادقون... يا صائمون... يا مُصلون، ألم تقرءوا قول الله تبارك وتعالى، وهو يتحدَّث لنا عن قرية، قرية نامت في جَفْن البحر، قرية جاورت البحر، ولكنها ما وقَّرت رب البحر، وما عظّمت رب البحر، وما استحت من الله:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦].

هذه **القرية**: مسكينة بائسة... هذه **القرية**: هالكة عاصية... **قرية**: جحدت معروف الله... **قرية**: تنكرت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... **قرية**: عطَّلت أوامرَ الله كما تفعل بعض القرى... **قرية**: كانت تجاور البحر ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وأسلوب القرآن رائع بديع، أخَّاذ يأخذ بأوتار النفس.

هذه القرية من قرى بني إسرائيل، اجتمعت عند البحر، واجتمع أهلها على المعصية، حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت لحكمة أرادها الله.

حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت.. ولكن الخبثاء الحقراء الأذلة فجّروا من البحر طرقاً ليوم الأحد؛ حيلة على الواحد الأحد، يضحكون على الله، يستهزؤون بالله، يخادعون الله وهو خادعهم.

فكانت الأسماك تمر يوم السبت، فإذا دخلت إلى الخنادق وإلى الأخاديد سكّروا الماء، ثم صادوها يوم الأحد، فلما فعلوا ذلك انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم شاركهم، وقال:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدُ

مثل ما يفعل بعض الماجنين اللاهين، يوم يرى أهل المعاصي كثير فيقول: حط رأسك مع الرؤوس، واجعل نفسك مع هؤلاء، والله غفور رحيم.. والبلد كله من هذا الصنف.. والناس فعلوا كذا فافعل مثلهم.

وهؤلاء لا يحملون عقلاً، ولا وقاراً، ولا حياءً من الله: قد ماتت قلوبهم في الحقيقة.. وأصبح الإيمان في قلوبهم متلاشياً.. سخِروا من الله فسخِر الله منهم.

٢ ـ وصنف بارد: يعيش لخبزه، ولطفله، ولحذائه، فهو جالس في البيت يقول للدعاة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

يقول: الناس هَلْكَى، اتركوهم وشأنهم، دع ما لله... ودع ما لقيصر لقيصر... ما عليك منهم، الله لا يسألك إلا عن نفسك... وهؤلاء أهل السلبية الذين سوف يحاسبهم الله على ما عطّلوا من أمر بمعروف ونهي عن منكر.

٣ ـ وقامت طائفة ثالثة، بيّض الله وجوههم، أهل لا إله إلا الله، أهل الرسالة، أهل الحياة الخالدة، الذين نوّر الله بصائرهم في الدنيا والآخرة، قالوا للعصاة: قفوا... قفوا أيها الضُّلاَّل، إن الهلاك سوف يعم.

فماذا كانت النتيجة؟ لقد أرسل الله عليهم عذاباً نكالاً، فمسخهم قردة وخنازير، هؤلاء أهل المعصية... أهل الشاطىء، أهل الانحراف الذين عصوا الله، ولا شعروا بوقار الله... والشعور بوقار الله من أسس الإسلام، بل هو من العقيدة الحقَّة.

قال نوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٧].

ما لكم لا ترجون للّه وقاراً؟... ما لكم لا تحترمون الله؟..

يقول أبو بكر، رضي الله عنه وأرضاه: يأيها الناس، استحيوا من الله حقَّ الحياء، فوالله الذي لا إله إلا هو، إني لأذهب إلى الخلاء لأقضي حاجتي فأجعل ثوبي على وجهي حياء من الله. رضي الله عنه، اللهم ألحقنا معه في منازل الخالدين.

ألا يستحي هذا العبد الذي خرج بعرضه، وخرج ببنته، وخرج بزوجته وأخته، وخرج بدينه وبشرفه، وخرج بإيمانه بين لاهين لاغين تركوا المساجد والقرآن؟ ماذا يقولون للّه؟ صحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«استحيوا من الله حق الحياء، والاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ومن تذكَّر البلى ترك زينة الحياة الدنيا»**[(١)].

يوم تخلو بالحيطان وتتستَّر بالجدران فتعلم أن الواحد الأحد يراك وتقول لنفسك:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

بكى الربيع بن خثيم، حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: والله، إن شاء الله، لا يسألني ربي أنني وقعت بفاحشة أبداً.

وقال البخاري: ما كذبت كذبة، ولا اغتبت مسلماً منذ علمت أن الغيبة تزري بأهلها.

تلك النماذج عاشت للّه... وماتت للّه... وذهبت للّه... وأتينا إلى جيل لا يعرفون الله، أكلوا نعم الله، واستنشقوا هواء الله، وشربوا ماءَ الله.. وبارزوا الله بالمعاصي.

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٦٦٢)، والترمذي برقم (٢٤٥٨)، وانظر: المشكاة برقم (١٦٠٨).

أنجى الله الذين ينهون عن السوء، وأما أولئك فهلكوا.. وأما الصنف الثاني فقد اختلف العلماء فيهم، وكأنهم إلى الهلاك أقرب.

يا مسلمون! في هذه الرسالة مسائل:

أولها: واجبنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيها: أدب الدعوة، كيف ندعو الناس؟ وكيف نجلس للناس نعلمهم الإسلام؟ وكيف نلقِّنهم لا إله إلا الله؟

الثالث: الفتن التي عمَّت وطمَّت، حتى يتمنَّى المسلم اليوم أنه يدفن مكان صاحب القبر.

الرابع: حياة اللهو واللعب والعبث التي يعيشها كثير من الناس.

الخامس: عقوبات المعاصي.

السادس: هل من توبة يا مسلمون؟

السابع: كلمة إلى النساء.

أمة نحن لا نعيش إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنا وأنت الكاتب والقارىء، إن لم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وإلا فاعتبر أن الخزي سوف يحل بنا والذل ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

يقول ﷺ: **«إنما هلك الذين من قبلكم أن الرجل منهم كان ينهى الرجل ثم لا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه من آخر النهار، فلما فعلوا**

ذلك لعنهم الله وحوَّلهم قردة وخنازير»[١]، أذلهم ذلاً ما شهد التاريخ مثله بل كتب عليهم اللعنة في كل كتاب، وعلى لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يفتقر إلى أمر إلاَّ من الواحد الأحد، وإذا فعلت ذلك فتأكد أن الدمار والخسار سوف يحل بالبلاد والعباد.

صعد أبو بكر على المنبر، رضي الله عنه وأرضاه، فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون آية وتحملونها على غير محملها، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشكوا أن يعمهم الله بعذاب من عنده**»[٢]، حديث صحيح.

أي: إذا رأوا المنكر وسكتوا، ولم يتكلموا، بل جعلوها للهيئات، وتخلّوا عن المسؤولية، وعاشوا سلبيين، أوشك الله أن يأخذ الناصح والطالح، والمصلح والمفسد، ثم يلعنهم كما لعن الذين من قبلهم.

(أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في سكرات الموت)، هذا باب بوّبه أهل السنة في كتبهم قالوا: عمر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو في سكرات الموت.

طُعِن أمير المؤمنين عمر؛ لأن الأبطال يموتون شهداء، نزف دمه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٣٣٦)، والترمذي برقم (٣٠٤٧)، وابن ماجه برقم (٤٠٠٦).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١، ١٧، ٣٠، ٣١)، وأبو داود برقم (٤٣٣٨)، والترمذي برقم (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وابن ماجه برقم (٤٠٠٥)، وانظر: المشكاة برقم (٥١٤٢).

كالماء، فماذا يقول عمر؟ كان يذرف الدموع، ويقول: يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني ما عرفت الحياة!! يا ليتني ما توليت الخلافة.

طوبى لك يا أمير المؤمنين، والله يا ليت أيامك تتكرر.

أيا عمر الفاروق هل لك عودة فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
رفاقك في الأغوار شدّوا سروجهم وجيشك في حطين صلوا وكبروا
تغنِّي بك الدنيا كأنك فاتح على بركات الله يرسو ويُبحر

كان دمه يثعب، وكانت عيناه تُهراق بالدموع ويقول: هل صليت؟ لأنه طعن في الركعة الأولى وما أكمل الصلاة، فكانت شغله الشاغل يريد أن يلقى الله بالصلاة، لا سأل عن زوجة، ولا عن منصب ولا عن دار، ولا عن قصر، ولا عن خلافة، ولا عن مُلْك.

قال: هل صلَّيت؟

قالوا: يعينك الله وتُصلي.

فأعانه الله، وأتم الصلاة، وكان يقول في سكرات الموت: الصلاة... الصلاة ... اللّهَ اللّهَ في الصلاة، لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة... ومن حفظ الصلاة حفظه الله، ومن ضيَّع الصلاة ضيَّعه الله.

فأتى شاب إلى عمر، وهو في الرَّمَق الأخير، فسلّم عليه، فلما ولّى وجد عمر إزاره نازلاً تحت الكعبين، فقال: تعال يا ابن أخي... رضي الله عنك، حتى في ساعة الصفر تأمر، حتى في الساعة التي ينسى الإنسان فيها حبيبه، وزوجته، وولده، تأمر.

قال: تعال، يا ابن أخي، ارفع إزارك... ارفع إزارك فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك.

قال الابن «الغلام»: جزاك الله عن الإسلام خير الجزاء... إي والله.

يقول عليٌّ لعمر وهو مكفَّن يُصَلّى عليه وأصبح جنازة: والله ما أريد أن ألقى الله بعمل رجل إلا بعملٍ كعمله. لقد كُفِّنت سعادة الإسلام في أكفان عمر.

إنما الشاهد أنه أمر في ساعة حرجة بالمعروف ونهى عن المنكر.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**(١). أيُّ إيمان يبقى مع الإنسان الذي يجوب الأسواق والمتنزَّهات والشواطىء، وينظر إلى هذه المناظر، ثم لا يُنكر قلبه على أقل الأحوال؟.. والله إن الإنسان يصيبه المرض... وإنه يأسف أسفاً شديداً، وإن قلبه يكاد يتمزَّق حسرة على هذه الأمة.

أقول لإخواني إن طريق الهداية قد فتحت أبوابها، فعودوا إلى الواحد الأحد... وإن واجبنا نحن، يا دعاة الإسلام، أن ننزل إلى الناس، وهو العنصر الثاني (آداب الدعوة)، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وواجبنا أن نرحم الناس، وأن نشفق على الناس... لماذا نبقى في مساجدنا والناس يتهالكون؟.. لماذا نبقى والمعاصي طمّت وعمّت؟.. أما نخشى أن يأتينا أثرها ونحن في بيوتنا؟.. لا إلٰه

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٩)، وأحمد برقم (١٠٧٦٦، ١١٠٦٨، ١١١٠٠)، وأبو داود برقم (١١٤٠)، والترمذي برقم (٢١٧٢)، وغيرهم.

إلا الله... إن واجبنا: أن نأتي بالأسلوب الذي أتى به محمد ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].. فالناس، والله، يدعون إلى كياناتهم، وإلى أساليبهم، وإلى قوانينهم... أفلا تدعو أنت إلى الله؟

وفي بعض الآثار: أن الملائكة بكت لبكاء يعقوب، عليه السلام، وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، يقرأ سورة يوسف في صلاة الفجر فإذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] بكى وبكى الناس معه.

فتفارق يوسف ويعقوب، عليهما السلام، أربعين سنة.

بنتم وبنّا فما ابتلت جوارحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناديكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

ثم انتقل سبحانه إلى يوسف، عليه السلام، وهو في الجبّ فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف: ١٩] لقد كان في صحراء، ليست بمؤنسة، ليس معه إلا الذئب، ولكن الله أتى بهذه القافلة، وبهذا الموكب العظيم لينقذ يوسف، عليه السلام، من الجب، فقد ضلَّت القافلة طريقها، وكانت قد أتت تريد فلسطين، فضلَّت لحكمة أرادها الله.

فعناية الله تكون لمن يريد الله.

ورعاية الله تلازم عباد الله.

يقول بعض أهل العلم: يقول أحد الصالحين: رأيت عصفوراً يأتي بلحم ويذهب إلى نخلة بالصحراء، فتتبعته، فوجدته كل يوم يأخذ

من المزبلة لحماً وخبزاً، ويذهب به، ويضعه في تلكم النخلة، فصعدت لأرى ماذا في النخلة، وعهدي بالعصفور: أنه لا يعشعش في النخل، فرأيت حية عمياء، كلما أتى هذا العصفور بهذا اللحم، فتحت فاها، وأكلت منه.

فالذي سخّر العصفور لها هو الذي سخّر تلكم القافلة ليوسف.

وأخرج الله تعالى من صلب الوليد بن المغيرة: خالد بن الوليد... الذي قاد مائة معركة... خالد الذي أبلى بلاءً حسناً في الإسلام... خالد الذي قدّم دموعه، ووقته في خدمة لا إله إلا الله. وأخرج من صلب أبي جهل: عكرمة بن أبي جهل... الذي أتى في اليرموك، رضي الله عنه وأرضاه، فلما التقى الجمعان: الإسلام والكفر... الضلال والحق... خرج فاغتسل، ولبس أكفانه، وقال لأصحابه: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، هل لكم وصية إلى رسول الله ﷺ؟

قال الجيش: بلِّغه عنا السلام.

فأخذ السيف، وخاض المعركة، وقُتل، وبينما هو في الرَّمَق الأخير أعطوه الماء ليشرب فقال: أعطوه غيري.

فيعطونه جريحاً آخر، فيرفض أن يشرب، فيأتون الآخر، فيرفض إلا أن يشرب عكرمة، فيعاد بالماء إلى عكرمة، فإذا هو قد فارق الحياة.

عفاء على دنيا رحلت لغيرها فليس بها للصالحين معرج
كدأب علي في المواطن كلها أبي حسن والغصن من حيث يخرج

قال: فحوَّله الساقي إلى الآخر، فوجده قد مات، وحوَّله إلى

الآخر فوجده قد مات، فبكى الساقي حتى سُمع صوت بكائه، ورمى الكوب من يده وقال: اللهم اسقهم من جنتك، فإنهم قد خرجوا في سبيلك، اللهم اجمعنا بهم في الجنة.

والشاهد: أن محمداً ﷺ تحمّل وصبر، حتى قدم إسلاماً كاملاً، ومنهاجاً رائعاً للناس.

يقول الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] فهو عظيمٌ خُلُقُه، عظيم صبره، قاتله أقاربه، وجرحوا مشاعره.. وضربوا بناته، وآذوه، وسبُّوه، وشتموه وأخرجوه من دياره... وفي الأخير لما انتصر عليهم وفتح مكة.. وطوّق الحرم بالجيش قال لكفار مكة: «**ما ترون أني فاعل بكم؟**»

فتباكوا وقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء غفر الله لكم**»[1]... بل رفع الله منزلتك، وآتاك الله الوسيلة حتى يقف أبو سفيان أمامه يبكي ويقول: لا إلـٰه إلا الله ما أرحمك، ولا إلـٰه إلا الله ما أبرَّك، ولا إلـٰه إلا الله ما أوصلك.

وأتاه أبو سفيان بن الحارث، ابن عمه، بعد أن فرّ بأطفاله؛ لأنه آذى الرسول ﷺ، فقال له علي بن أبي طالب: إلى أين تسير يا أبا سفيان؟

قال: أخرج إلى الصحراء، فأموت أنا وأطفالي جوعاً وعرياً وعطشاً.

---

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (١٦١/٢)، والبيهقي في الشعب برقم (١٨٠٥٥)، وابن حبان في الثقات (٥٦/٢)، والشافعي في الأم (٣٦١/٧)، وانظر: صحيح الجامع برقم (٤٨١٥).

قال له: ولماذا؟

قال: إن أدركني محمد قطعني بالسيف إرباً إرباً.

قال: عُدْ إليه وسَلِّم عليه بالنبوة وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١].

فعاد إليه، ووقف على رأسه، وسلّم عليه وقال: يا رسول الله.. ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١].

فرفع ﷺ طرفه، وقد هملت الدموع على محيّاه الجميل، وقطّرت لحيته بالدموع.

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

فقال ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

نعم، نجح نجاحاً ما شهد التاريخ مثله، العدو يأتيه فينقلب صديقاً بدعوته.

أتاه رجل، فقال: يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأتوب من كل معصية إلا الزنا.

فقام الصحابة يريدون أن يؤدِّبوا هذا الرجل... لأنه يتكلَّم بالفاحشة أمام الرسول ﷺ.

فقال: دعوه.. اتركوه.. فتركوه.. فقال له: تعالَ.. فأجلسه بجانبه ووضع يده الشريفة على كتفه وقال: أترضى الزنا لأمك؟

قال: لا، والله.

قال: أترضاه لأختك؟

قال: لا، والله.

قال: أترضاه لابنتك؟

قال: لا، والله.

قال: أترضاه لزوجتك؟

قال: لا، والله.

قال: فهل يرضاه المسلمون لأخواتهم وبناتهم: أو كما قال ﷺ[1].

قال: أتوب يا رسول الله، من الزنا... فوضع ﷺ يده على قلب الرجل وقال: اللهم طهّر سمعه، وبصره، وحصِّن فرجه.

وأصبح الرجل في ميزان الإسلام... لأن اللبيب عرف كيف يقود هذا إلى الهداية.

إننا تنقصنا الحكمة... وإننا تنقصنا الرحمة... وإننا تنقصنا الشفقة... وإنه ينقصنا الأسلوب... إننا ركَّزنا اهتماماتنا بالمساجد، وتركنا هذه الأماكن!! أهل المساجد جاهزون أتوا يصلون، فهم مستقيمون، عابدون صادقون ساجدون، راكعون، لكن إخواننا... أقاربنا... أبناؤنا... جيراننا... أصحابنا في أماكن اللهو فمن يهديهم إلى صراط الله المستقيم؟

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٧٠٨)، والطبراني في مسند الشاميين برقم (١٠٦٦، ١٥٢٣)، وفي الكبير برقم (٧٦٧٩، ٧٧٥٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٥٤١٥)، وانظر: مجمع الزوائد (١/١٢٩).

يقول ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**(١)، وقال ﷺ: **«نضَّر الله امرءاً سمع مني مقالة فوعاها فأدَّاها كما سمعها، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع»**(٢).

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«بلغوا عني ولو آية»**(٣).

وقد ذم الله تعالى من كتم العلم. ومن جحد معروفَ الله له في الدعوة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وتقصيرنا في الدعوة أتى من أمور:

منها: أنه يوجد من يُشهِّر بالعصاة، فيشهِّر بأسمائهم؛ أو يبكتهم بالعتاب أمام الناس، أو يتحدَّث لهم أمام الناس في معصيتهم، وهذا خطأ.

يقول الشافعي:

تعمَّدني بنصحك في انفراد ... وجنِّبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت أمري ... فلا تجزع إذا لم تُعط طاعة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٩٤٢، ٣٠٠٩، ٣٧٠١)، ومسلم برقم (٢٤٠٦)، وأحمد برقم (٢٢٣١٤)، وأبو داود برقم (٣٦٦١).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٥٧)، وابن ماجه برقم (٢٣٢)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٤٦١)، وأحمد برقم (٦٤٥٠، ٦٨٤٩)، والترمذي برقم (٢٦٦٩)، وغيرهم.

ومنها: أننا لا نصبر في إيصال الحق إلى أصحابه.

ومنها: أن بعض القوالب التي يُؤدى بها المعروف تكون فظة غليظة لا يقبلها الناس ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٢٥٩].

يقول جرير بن عبدالله: والله ما زال ﷺ... كلما رآني يبتسم في وجهي.

ويقول عمرو بن العاص: ما زال ﷺ ينظر إليَّ، حتى ظننت أنني أفضل من أبي بكر وعمر.

فاللين وإيصال الحق في قالب الرحمة، وعدم التشهير بالعصاة من أسباب الهداية؛ لأن الناس بهم خير.

وأنا أذكر قصةً لرجل سمعتها منه مباشرة.. وهو داعية موفق، نوّر الله قلبه، وبصيرته، وآتاه الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

يقول: كان في بلدنا رجل مجرم بمعنى الكلمة.. هذا المجرم مروِّج للمخدِّرات، وسبق أن رجال الأمن طاردوه، وطاردهم، وضايقوه، وضايقهم... وكانَ يحملُ السِّلاح، قطع والديه، وقطع أرحامه، ونسي الله... وتردّى في المعاصي، حتى أعجز الناس.

قال: فأتتني فكرة؛ لأن يهديه الله على يدي، فكنت أقوم في آخر الليل في السحر، وأتضرع إلى الله أن يجعل هدايته على يدي، وصُمْتُ قبل أن أصل إلى بيته يوماً، لعل الله أن يجعله من العمل الصالح الذي يُتقرَّب به إلى الله، ثم أخذت هدية... وما أحسن الهدية! هدية تأخذ القلوب، وتجلب الأرواح يفعلها محمد ﷺ وأتباعه.

قال: وذهبت بها إلى بيته، فلما رأيته سلَّمت عليه، وقلت له: أحببتك في الله... ورأيت عليك آثار الخير!!! من أين آثار الخير

فوجهه كقفاه! فهو أسود من الليل!.. لكن انظر إلى الأساليب.. انظر إلى السحر الحلال.

ففي السحر: سحر حلال، وسحر حرام... السحر الحلال: تبسمك في وجوه الرجال... وأن تعانق العصاة لتقودهم إلى الجنة؛ ليكونوا في ميزان حسناتك.

فالكلمة الفظَّة سهلة... وتعقيد الجبين سهل... والهراوة سهلة... والكرباج سهل... لكنها تهدم ولا تبني، وتشرِّد ولا تقرِّب، وتقسي ولا تلين... ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله.

وقال ﷺ: **«ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع الرفق من شيء إلا شانه»**[١]، ويقول ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»**[٢].

قال: فنظر فيَّ وقال: أتعرفني؟

قلت: لا، وإنما رأيتك في مناسبات، فخذ هذه الهدية، فأخذها. قال: وما كلمته بكلمة واحدة، وعدت إلى بيتي.. وقلت: الحمد لله نجحت في أول خطوة.

وبعد أيام ذهبت إليه، وقلت: أسألك بالله أن تأتي إلى بيتي في زيارة فإني أحببتك.

قال: آتيك.

فحدَّدت له موعداً ليس إلا أنا، وهو، فدخل بيتي.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٤)، وأحمد برقم (٢٣٧٨٦، ٢٤٢٨٧)، وأبو داود برقم (٢٤٧٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٢٥٦، ٦٣٩٥، ٦٩٢٧)، ومسلم برقم (٢١٦٥)، وأحمد برقم (٢٣٥٧٠، ٢٤٠٣٢)، وغيرهم.

فدخل البيت وتغدَّى.

قال: والله، ما كلمته بالدعوة بكلمة، فخرج، فقلت: هذا نجاح ثاني.

قال: ومرة ثالثة، قلت له، لديّ سفر إلى قرية قريبة، وأريد أن تركب معي... فركب معي.

قال: فلما ركب معي ابتهلت إلى الله ودمعت عيناي، فدعوت الله أن يرزقني الصدق، وأن يجري الحق على لساني.

قال: فلما ركب انطلقت في الكلام، وأتت فتوحات من الواحد الأحد..، ما أدري من أين انهال هذا الكلام فأخذتْ دموعه تتسابق. فقد أحيا الله الفطرة... وأخرج الله الفطرة من مكانها.. واشتعلت الفطرة في قلبه.. وتحركت لا إله إلا الله في روحه.

قلت له: أريد أن أجنبك النار... أريد أن أقودك إلى الجنة في كلام طويل.

قال: مد يدك... فمددت يدي.

قال: أُشهِد الله، وملائكته، وحملة عرشه، ثم أُشهدك أني تبت إلى الله، وأسألك بالله الذي لا إله إلا هو قبل الفجر أن تمر عليّ لتأخذني إلى المسجد.

وعدت إلى القرية، وبعد أيام كان يصلي معي في المسجد، ودخل على والده ووالدته، وكانا كباراً في السن.. وقد هجرهم سنوات.

فدخل عليهم، وآثار الخير والنُّور يشعان من وجهه، فقالوا: أأنت فلان؟

قال: أنا فلان.. ثم قَبّل يد أبيه، ورأسه، ويد أمه، ورأسها، فانطلقوا يبكون فرحاً في البيت.

طفح السرور عليَّ حتى أنني   من عظم ما قد سرَّني أبكاني

فيا مسلمون، بمثل هذا فليعمل العاملون، وهو أسلوب محمد ﷺ الفذ العجيب الذي وصل به إلى قلوب الناس، والذي أخذ أعدى الناس حتى أصبحوا في صفِّه ﷺ.

العنصر الثالث: الفتن، ونعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

كان ﷺ يقولُ لعمّار: **استعذ بالله يا عمار من الفتن**، فيقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

ويقول ﷺ في الصحيح: «**يوشك أن يكون خير ما للمرء المسلم غنم يتتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر يفر بدينه من الفتن**»(١). وحدث هذا، فيتمنى الإنسان يوم يرى بعض المناظر أنه ما عرف الحياة، أو أنه بجبل يتصل بالله في شعب من الشعاب، لكن ماذا يفعل؟ أينسحب؟. أينهزم؟. والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فلا بد من كلمة الحق... ولا بد من الدعوة إلى منهج الله سبحانه وتعالى.

ومن علامات الفتن التي أخبر بها ﷺ ما ثبت في الصحيح أنه قال: «**صنفان من أمتي لم أرهما اليوم... أناس معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس... ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البُخت لا يجِدْن رائحة الجنة**»(٢).

أما النساء، فقد رأينا نساء مائلات مميلات، يُمِلْن القلوب،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠)، وأحمد برقم (١٠٦٤٩، ١٠٨٦١)، وأبو داود برقم (٤٢٦٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٢٨)، وأحمد برقم (٨٤٥١، ٩٣٨٨).

ويُملن الأرواح... مميلات للأفئدة... وقيل: يمِلْن بأجسادهن وحدَث هذا.. فأصبحت فتاة الإسلام تخرج من بيت أبيها متجمِّلة متعطِّرة.. متطيبة نابذة لا إله إلا الله وراء ظهرها لتقول للمجرمين: انظروا.

ثم تعود..

بماذا تعود؟ بلعنة والعياذ بالله، صح عنه ﷺ أنه قال: «**أيما امرأة استعطرت، ثم مرت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية**»[1]، لأن العيون نظرت إليها... فحذاري حذاري من هذه الفتن.

ويقول ﷺ: «**ما تركت على أمتي فتنة أشد على الرجال من النساء**»[2]، فإبليس ما استطاع أن يغوي كثيراً من المهتدين إلا بطريق النساء.

فأقول للنساء، لعل سامعة أن تسمع، ولعل مبصرة أن تُبصر... ولعل مؤمنة أن ترى وأن تتدبَّر وتتفكَّر... يا أختي... يا أمي... يا أيتها المسلمة: اتقي الله في إيمانك وعِرضك، اتقي الله في المجتمع... اتقي الله في العباد والبلاد... أنت المسؤولة عن الفتن... وتعريض غيرك للمخاطر.

يا أَمَة الله: بيتك... بيتك... يا أَمَة الله: أين الإيمان؟ أين تربية محمد ﷺ؟ أين قول الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقفت عائشة بعد وفاة الرسول سنوات في بيتها، وكانت تتهجَّد وتردد: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٩٢١٢، ١٩٢٤٨)، وأبو داود برقم (٤١٧٣)، والترمذي برقم (٢٧٨٦)، والنسائي برقم (٥١٢٦)، وانظر: المشكاة برقم (١٠٦٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠٩٦)، ومسلم برقم (٢٧٤٠)، وأحمد برقم (٢١٢٣٩، ٢١٣٢٢)، والترمذي برقم (٢٧٨٠)، وغيرهم.

وصح عنها أنها قرأت في ضحى إلى الظهر قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: ٢٧، ٢٨] وتبكي... أين هذه التربية الخالدة؟. أين تربية الإسلام؟

وإني أوصي المسلمة بثلاث وصايا:

أولها: أن تكون مربية في البيت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

الخنساء تقدمت في القادسية كما قال بعض أهل التاريخ بأربعة أبناء، فألبستهم الأكفان، وطيَّبتهم، وقالت: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، لا تعودوا إلا قتلى؛ ليشرِّفني الله بشهادتكم... فقُتلوا في سبيل الله، فلما أُخْبرت، تبسَّمت، وقالت: الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم في سبيله.

أيُّ امرأة هذه؟ المرأة المسلمة... أيُّ تربية هذه؟ التربية الحرة.

أراد عليُّ بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه، أن يخطب فاطمة فدخل على الرسول ﷺ.

قال: فاستحييت من رسول الله ﷺ.

قال ﷺ: **كأنك تريد فاطمة**.

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: **عندك شيء من مال؟**

قلت: والله ما عندي شيء!! عليُّ بن أبي طالب لا يملك شيئاً! لكنه يملك الإيمان.. ويملك التوحيد.. ويملك لا إله إلا الله.. ويملك قصوراً في الجنة.. وسعة في الجنة.. وبساتين في الجنة.

قال ﷺ: **أين درعك الحُطمية؟**

قال: فأتيت بها مكسرة لا تساوي درهمين.. فزوَّجه ﷺ[1].

يقول محمد إقبال عن فاطمة:

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟

من ذا يساوي في الأنام عُلاها

أما أبوها فهو أشرف مرسل

جبريل بالتوحيد قد ربَّاها

وعليٌّ زوج لا تسل عنه سوى

سيفاً غدى بيمينه تيَّاها

زارهم ﷺ في الليل.. فاستناروا بنوره في الظلام.. وصلهم وهم نائمين، فقالت فاطمة: يا رسول الله، طحنت الرحا حتى كلّت يدي، وكنست حتى تدنست ثيابي، فهل من خادم؟ تعني: جارية تخدمها، تريد خادمة.

فانتظر ﷺ ثم أتاها بعد ليالي وقال: «**ألا أخبركم بخيرٍ لكم من خادم...**» بإمكانه أن يعطيها ذهباً ﷺ وفضة... وخدماً... ولكنه يريد لها الجنة. تأتي يوم القيامة على ناقة من نور، خطامها نور يشق لها الناس الطريق وهي بنت محمد محجبة ... ﷺ.

قال: «**ألا أدلكما على خير لكما من خادم؟**»

قال: بلى، يا رسول الله.

قال: «**إذا أويتما إلى مضجعكما، فسبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين،**

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢١٢٥)، والنسائي برقم (٣٣٧٥، ٣٣٧٦)، وابن حبان برقم (٦٩٤٥)، وانظر: مجمع الزوائد (٤/٢٨٣).

واحمدا الله ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا الله أربعاً وثلاثين، فهي خير لكما من خادم»[١].

أتته سكرات الموت ﷺ، فاقتربت منه، رضي الله عنها وأرضاها، فأخذت تبكي. يقول لها ﷺ: **«أنت أول الناس لحاقاً بي»**، وعلمتْ أنه سوف يموت في ذاك المرض، فأخذت تبكي، فقال: ادني يا بنية.. فدنت، رضي الله عنها وأرضاها، من المصطفى ﷺ، فلما دنت من المصطفى ﷺ قال: **«أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين»**[٢]، فتبسّمت.

إن النموذج الخالد: نساؤه ﷺ، وبناته، والمؤمنات الصادقات الصالحات.

فلماذا هذا التكشف؟ لماذا هذا العُري؟ لماذا مخالفة الحجاب؟ لماذا الخروج على أمر الله؟ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

تكشف على الشاطىء... تكشف مع الخياط... تكشف مع بائع الذهب، أين الإيمان؟ أين التقوى؟ أين الخوف من الواحد الأحد؟

يقول أهل العلم: كان من الصالحين رجل صدِّيق، فأتى بعض الفجرة وقالوا: والله لنغوينّه، فأتوا إلى مُومسة، والعياذ بالله، فأعطوها مالاً، وقالوا لها: تعرضي لذاك العابد في ظلام الليل.

فتعرضت له، ولما رآها، وهي متكشِّفة، رأى الجمال، فقال لها

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١)، ومسلم برقم (٢٧٢٧)، وأحمد برقم (٨٤٠، ١١٤٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٢٤)، ومسلم برقم (٢٤٥٠)، وأحمد برقم (٢٥٨٧٤)، وغيرهم.

العابد وقد نكس بصره: يا ذات الجمال اتقي ناراً تلظّى، لا تلفح وجهك النار.

فأخذت تبكي وتابت إلى الله!

يا ذات الجمال... يا ذات الخِدر... يا ذات العِرض... يا بنت الإسلام، يا فتاة الدين... احذري نار جهنم أن تلفحك بحرارتها، فالله عز وجل أرصد للعصاة ناراً... ووعدهم نكالاً... وأكلهم: زقُّوم، وشرابهم: الصديد، فاحذري أن يكون مصيرك بعد هذا اللهو، وهذا الفتون، وهذا اللعب، وهذا التمرد على منهج الله، أن يكون ناراً تلظى... ويكون ضياعاً وخسراناً... نعوذ بالله من الخذلان.

تزوَّد للذي لا بد منه ... فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قومٍ ... لهم زاد وأنت بغير زاد

ولكن كيف تُربى المسلمة؟ كيف تربى المسلمة التي تخاف الله عز وجل؟ وترجو لقاء الله تبارك وتعالى؟

نربيها بالصلاة... بالحجاب... بذكر الله... بالكتاب الإسلامي... بالشريط الإسلامي، بالاتصال بالله الواحد الأحد.

العنصر الرابع: حياة اللهو واللعب.. فكثيرٌ من الناس ميت!!! يأكل، ويشرب، ويرقص، ويغني، ويستمع الأغنية، ويطالع المجلة، فهو عبد لشهواته، وعبدٌ لبطنه... وعبد لفرجه... ولكنه ميت تماماً ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

لا إله إلا الله، كم سفكوا من النظرات؟ ولا إله إلا الله، كم اعتدوا على الحرمات؟ ولا إله إلا الله، كم أغضبوا رب الأرض والسموات؟ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

عاشوا على العود، وهجروا المصحف... عاشوا على الدندنة، وهجروا التلاوة... عاشوا على المقهى الأثيم الأحمر، وتركوا المساجد. هجروا القرآن من أجل المجلة الخليعة.

ولكن مع ذلك هم على الفطرة، ولكن مع ذلك، هم مستعدُّون أن يعودوا إلى الله.. ومع ذلك، ما زالت حرارة لا إله إلا الله تتوقد في قلوبهم.

والحمد لله.. لقد عاد كثير منهم إلى الهداية، بعد أن جرّبوا كل شيء، فما وجدوا السكينة.

نعم، إنها صحوة وعودة إلى الواحد الأحد؛ لأن الناس جرَّبوا الضياع فما وجدوا العيش إلا في كَنَفِ الله... أي شيء وجد من فَقَدَ الله؟.. وأي شيء فَقَدَ من وَجَدَ الله؟

ولو إنا إذا متنا تُركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنّا إذا متنا بعثنا ويسأل ربنا عن كل شي

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

لقد اهتدوا، وعادوا، وسجدوا للواحد الأحد، وبكوا، وتغسلوا بالدموع، وتوضأوا بماء الحسرة، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ولكن لا زالت بقية من الشباب ـ هداهم الله ـ مُعْرِضين عن الحق، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

فكثير من النَّاس يعيش لجسمه فقط، فهو يريد أن ينزه جسمه... في الصيف في أبها، أو في الطائف، وفي الربيع في جدة على الشواطىء في قصر... وفي مكيف... وفي نعيم... وفي رغد... وفي فسحة... وفي نظر... أما جسمه فغذّاه، ولكنَّه أهلك قلبه هلاكاً ما بعده هلاك.

يا متعب الجسم كم تسعى لراحته أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على الرُّوحِ واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان
يا عامراً لخراب الدار مجتهداً فهل لخراب الدار عمران

ثابت البناني - محدِّث كبير - بكى حتى ذهبت عينه من خشية الله، وبقي على عين واحدة، فقالوا: نخرج بك إلى حدائق خراسان لعلك ترى الخضرة والماء.. ولعلك إذا رأيت الخضرة أن يعود لك بصرك.

فخرجوا به فرأى الحدائق الغنَّاء في خراسان... ورأى البساتين... ورأى الماء يجري، ولكن كلما رأى بستاناً بكى، وتذكَّر الجنة... وكلما رأى حديقة بكى، وتذكر الجنة.

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيّج أشواق الفؤاد وما يدري
دعــا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

ولما عاد إلى البصرة، قالوا: كيف وجدت الرحلة؟

قال: والله، ما أعجبني في نزهتي كلها إلا عجوزاً، رأيتها تصلي ركعتي الضحى، لله درُّك!!!

والله، إن هناك من ينظر إلى هذه القصور، وهذا العمار، وهذه الدور وكأنها الأحذية، أو التراب، أو الرماد، يوم يتفكر في جنة عرضها السموات والأرض، لأننا وإن طال تمتعنا، فحتماً سنردّ إلى مولانا ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢]

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤].

دخل ﷺ المسجد، فارتقى المنبر، فقال للصحابة: أنقاتل كفار قريش في أحد أو في المدينة؟

قالوا: نقاتلهم داخل المدينة.

فقام شاب من الأنصار من آخر الصفوف، وقال: يا رسول الله.. لا تحرمني دخول الجنة، والله الذي لا إله إلا هو لأدخلنَّ الجنة.

فقال ﷺ: **بمَ تدخل الجنة؟**

قال: بخصلتين: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف... فدمعت عيناه ﷺ وقال: «**إن تصدق الله يصدقْك**»[1] وخرجوا يوم أحد فكان أول مقتول!

أتى عبدالله بن عمرو الأنصاري، فنام قبل المعركة (معركة أحد) بليلة، فرأى في المنام أنه أول مقتول، أو من أول مَن يُقتل، فأيقظ بناته في الليل، فودَّعهم آخر ليلة، والليلة الثانية كان مع الله في ضيافة الواحد الأحد ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

فلما أيقظ بناته، قال: أستودعكن الله الذي لا تضيع ودائعه... رأيت أني أول من يُقتل غداً، ويا جابر عليك بأخواتك خيراً.

وأتى الصباح الباكر... الصباح البهيج... صباح أهل الجنة...

---

(١) أخرجه النسائي برقم (١٩٥٣)، وعبدالرزاق برقم (٦٦٥١، ٩٥٩٧)، والطبراني في الكبير برقم (٧١٠٨)، والحاكم برقم (٦٥٢٧)، والبيهقي في الكبرى برقم (٦٦٠٨).

والتقى مع الكفار فقُتل.. وضُرب ضرباً في جسمه مُبرحاً. فأتى ابنه يبكي فيقول ﷺ: **«ابكِ أو لا تبكِ، والذي نفسي بيده ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»**[١]... وقال أيضاً: **«والذي نفسي بيده يا جابر لقد كلَّم الله أباك كفاحاً بلا ترجمان، فقال له: تمنّ علي عبدي أعطك.**

قال: أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية.

قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون، فتمنّ.

قال: **يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله تعالى:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][٢].

حياة هي: حياة الجنة... وحياة القرب من الله الواحد الأحد.. وحياة هي: حياة التوفيق والسعادة، ومن حُرمها فقد حرم الأمان ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وابن تيمية قال له الملك: تريد مُلْكاً؟

قال: والله ما أريد ملكك، ولا ملك أبيك، ولا ملك أجدادك، لكن أُريد جنة عرضها السموات والأرض.

فيا مسلمون: لا يغرنّكم بالله الغرور: نعيم.. بساتين.. نزهات.. ماء.. ظل.. فكلها تتلاشى ولا يبقى إلا ما عند الواحد الأحد.

دنياك تزهو ولا تدري بما فيها	إياك إياك لا تأمن عواديها
تحلو الحياة لأجيال فتنعشهم	ويدرك الموت أجيالاً فيفنيها

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٤٤، ١٢٩٣، ٢٨١٦)، ومسلم برقم (٢٤٧١)، وأحمد برقم (١٣٧٧٥، ١٣٨٨٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٠١٠)، وابن ماجه برقم (١٩٠، ٢٨٠٠)، والحاكم برقم (٤٩١٤)، وانظر: المشكاة برقم (٦٢٤٦).

فاعمل لدار غداً رضوان خازنها الجار أحمد والرحمٰن بانيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

اللهم اجعلنا من ورثة جنة النعيم.

العنصر الخامس: عقوبات المعاصي:

من أعظم عقوبات المعاصي: أن يضرب الله قلوبنا، ضرباً ما بعده ضرب... وهو ضرب القسوة ـ نعوذ بالله من قسوة القلوب ـ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

ولكن كيف لا يقسو قلب اللاعب.. اللاهي.. قلب المغني.. قلب الذي لا يعرف الصلوات الخمس في المسجد.. قلب الذي يعيش حياة كأنها حياة الخواجات.. فلا يعرف من الإسلام إلا اسمه، فهو مسلم بالحفيظة، ولكنه لا يحمل من الإسلام شيئاً.

عدَدُنا كثير، فالمسلمون مليار، لكن:

عدد الحصى والرمل في تعدادهم فإذا حسبت وجدتهم أصفاراً
من كل مفتون على قيثاره كلاً رأيت بفنه بَيْطاراً

ومن آثار الذنوب: البغضاء التي تحدث بين القلوب، ولذلك تشتَّتت الأسر.. وقُطعت الأرحام.. وعق الوالدين.. ونشكو حالنا إلى الواحد الأحد.

ومن عقوبات المعاصي: قلة البركة... قلة البركة في الأموال والأولاد، جيل في البيوت من الأبناء، والأولاد، والبركة فيهم قليلة.. وأموال كالجبال، وبنوك، ولكن لا بركة.

ومن عقوبات المعاصي: فساد طعم الحياة، وهذا يُسَمَّى: انطفاء النور..

قال الإمام مالك للشافعي: إني أرى عليك آثار النور، والنباهة، فإياك أن تفسد نورك، ونباهتك بالمعصية.

وقال آخر: نظرت إلى منظرٍ لا يحل لي، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة، فنعوذ بالله من الخذلان والمعاصي والحرمان.

وأختتم هذه الرسالة بعنصرٍ: هل من توبة؟

هل من توبة يا مسلمون؟ وهل من عودة إلى الله الواحد الأحد؟ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

أتى رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله: أذنبت.

قال: **تُبْ إلى الله.**

قال: ثم أذنب. فقال: **تُبْ إلى الله.**

قال: ثم أذنب. فقال: **تُبْ إلى الله.**

قال: إلى متى؟

قال: **حتى يكون الشيطان هو المدحور**(١).

كلما أذنبت فتب إلى الله الواحد الأحد، واغسل خطيئتك بماء التوبة واستغفر... وراجع حسابك مع الله... واعلم أن التوبة واجبة.

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٣/٢)، والبيهقي في الشعب برقم (٧٠٩٠)، وانظر: مجمع الزوائد (٢٠١/١٠).

وبادر بالتَّوبةِ النَّصوح قبل احتضار وانتزاع الروح
لا تحتقر شيئاً من المأثم وإنما الأعمال بالخواتم
ومن لقاء الله قد أحبّا كان له الله أشد حُبّا

حضروا أبا بكر وهو في سكرات الموت، رضي الله عنه وأرضاه، قالوا: يا خليفة رسول الله... ماذا تشتكي؟

قال: أشتكي ذنوبي!! ذنوبك يا أبا بكر!! ذنوبك وأنت المجاهد الأول.. والمصدِّق الأول.. والزاهد الأول.

قالوا: ماذا تريد؟

قال: أريد المغفرة.

قالوا: هل ندعو لك طبيباً؟

قال: الطبيب قد رآني.

قالوا: مَاذا قال لك؟

قال: قال: إني فعَّال لما أريد!

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي

يقول بعض أهل التفسير: كان إبراهيم، عليه السلام، يقول في السَّحَر: أوّاه من ذنوبي.. أوّاه من خطاياي.. أوّاه من سيئاتي... فسمّاه الله أوّاهاً منيباً.

وكان بلال يقول مع السَّحر: اللهم هذا إقبالُ نهارك وإدبار ليلك... وهذا سَحَر فاغفر لي عللي.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: يا ليتني كنت رماداً، تذرني الرِّياح.

وقال عمر: يا ليتني كنت شجرة أُعْضَد.

وقال ابن مسعود: والله، لو علمتم ذنوبي لحثوتم على رأسي التراب. رضي الله عنهم وأرضاهم... كانوا أطهاراً... كانوا عبَّاداً... ليلهم: سهر مع الواحد الأحد.. قيام، ودموع، وخشوع، وخضوع، وركوع، ونهارهم: جهاد، ودعوة، وبذل، وعطاء.

فما بال ليلنا اليوم تحوَّل إلى موسيقى... وإلى غناء... وإلى لهوٍ... وإلى فُحْش... وإلى معصية إلا من رحم ربك؟

وتحوَّل النهار إلى غيبة، ونميمة، وشهادة زور... وإلى نظرٍ محرَّم.

فنشكو حالنا إلى الله.

يا رب عفوك لا تأخذ بزلتنا   وارحم أيا رب ذنباً قد جنيناه

كم نطلب الله في ضَرٍّ يحل بنا   فإن تولّت بلايانا نسيناه

ندعوه في البحر أن يُنجي سفينتنا   فإن رجعنا إلى الشاطىء عصيناه

ونركب الجو في أمن وفي دعة   فما سقطنا لأن الحافظ الله

والعجيب أن الله عُصي في البر، والبحر، وعلى الشاطىء، وفي الطائرات.

فسبحان من يعفو.

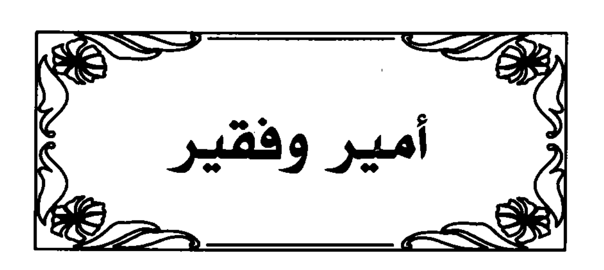
نسأله تعالى أن يتوب علينا... وأن يرد ضالّ المسلمين... وأن يهدينا إليه هداية عامة مطلقة.

اللهم إنا قد أسلمنا وآمنّا وصدّقنا.. اللهم فافتح لنا باب القبول.

اللهم أغثنا بفضلك، ومنّك، وكرمك... اللهم رُدَّ ضال المُسلمين، اللهم اهدنا سواء صراطك المستقيم... وثبتنا على الحق إلى يوم أن نلقاك.

وصلَّى الله على محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

❁ ❁ ❁



أمير وفقير

الحمدُ لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعلَ في السماء بروجاً وجعلَ فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعلَ الليل والنهار خلفةً لمن أرادَ أن يذَّكَّر أو أراد شكوراً، وتبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، الذي له ملكُ السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكاً في الملك، وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً.

وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أسكتَ الله به الجاهلية، فلم تتكلَّم، وهدم به الوثنية فلم تُبنَ، وأزال به أوضاع الشرك فلم يعُد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيقول ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ

وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

ما هي الحياة؟

ما هو ذهبها؟

ما هي فضتها؟

ما هي قصورها؟ ومناصبها ووظائفها؟

كلها لا شيء.. وإنما لعب، ولهو، وتفاخر، وتكاثر، وزهو، ورياء، وإعجاب، وظهور، ولموع.

ولكن الحقائق الباقيات هي: الإيمان، والعمل الصالح.

خرجَ علي ابن المأمون الخليفة العباسي، فأشرف من شرفة القصر ذات يوم ينظر إلى سوق بغداد.

ينظر من البروج العاجيَّة.. فطعامه: شهي.. ومركبه: وطي.. وعيشه: هني.

يلبس ما جمل، ويأكل ما طاب، وما جاع يوماً في حياته، وما ظمىء أبداً، وما مسَّت الشمس جبهته.

فأخذ ينظر من القصر إلى الناس في السوق، هذا يذهب، وهذا يأتي في حركة دؤوبة.

فلفت نظر الأمير رجل من الناس، يعمل حمَّالاً يحمل للناس بالأجرة، وكان يظهر عليه الصلاح والنسك.

فكانت حباله على كتفيه، والحمل على ظهره، ينقل الحمولة من دُكَّان إلى دكان، ومن مكان إلى مكان، فأخذ يتابع حركاته في السوق، فكان هذا الحمَّال إذا انتصف الضحىٰ، تركَ السوق، وخرج إلى ضفاف دجلة فتوضَّأ، وصلَّىٰ ركعتين، ورفع يديه إلى الحي القيوم.

سبحان من اتَّصل به الفقراء والمساكين!

سبحان من التجأ إليه المظلومون والمضطهدون!

سبحان من عرفه البسطاء وحجب كثيراً من الأغنياء والوجهاء!

فكان هذا الحمَّال إذا صلَّىٰ الضحىٰ، عاد فعملَ إلىٰ قبيل الظهر، ثمَّ اشترىٰ خبزة بدرهم، فيأخذها إلى نهر دجلة فيبلها في الماء، ويشرب من الماء ويأكل.

فإذا انتهىٰ توضأ للظهر، وصلَّىٰ، ثم دعا، وابتهل، وبكىٰ، ونادىٰ الحيَّ القيوم.

ثم نام ساعة، وبعد النوم يستيقظ، فينزل إلىٰ السوق، فيعمل، ويجتهد، ثم يشتري خبزاً، ويذهب إلى بيته.

وفي اليوم الثاني: يعود إلى هذا البرنامج، والجدول الذي لا يتغير، وهكذا اليوم الثالث، والرابع إلى أيام كثيرة.

فأرسلَ الأمير جندياً من جنوده إلى ذاك الحمَّال؛ ليستدعيه؛ ليكلمه في القصر.

فذهبَ الجندي، واستدعىٰ الحمَّال، فقال في نفسه: مالي ومال جنود بني العباس؟ مالي ومال الخلفاء؟

قالوا: أمر الأمير أن تحضر عنده اليوم.

فظنَّ المسكين أن الأمير سوف يحاسبه أو يحاكمه.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وهذه الكلمة: سلاح الفقراء، وسلاح المضطهَدين، وسلاح المظلومين، وسلاح المساكين، لكنَّها تكسر رؤوس الطغاة.. لكنَّها تحطِّم الحواجز الحديدية.. لكنها تسحق القلاع.

فإبراهيم، عليه السلام، عندما أتوا به، والنار محرقة، فرموه في النار أخرج سلاحه وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء.

فدخلَ هذا الفقير على ابن المأمون الأمير، فسلَّمَ عليه.

فقال له الأمير: ألا تعرفني؟

قال: ما رأيتك حتى أعرفك.

قال: أنا ابن الخليفة.

قال: يقولون ذلك.

قال: ماذا تعمل أنت؟

قال: أعمل مع عباد الله في بلاد الله.

قال: قد رأيتك أياماً، ورأيت المشقَّة التي أصابتك، فأريد أن أخفِّف عنك المشقة.

قال: بماذا؟

قال: اسكن معي القصر بأهلك، آكلاً، شارباً، مستريحاً، لا همَّ ولا غمَّ، ولا حزن.

فقال: يا ابن الخليفة، لا همَّ على من لم يذنب، ولا غمَّ على من لم يعصِ، ولا حزن على من لم يسيء.

أما من أمسىٰ في غضب الله، وأصبح في معاصي الله، فهو مصاحبٌ للغم، والحزن، والهم.

فسأله عن أهله.

فقال: أمي عجوز كبيرة، وأختي عمياء حسيرة، آتي بإفطارهما قبل الغروب، وهما تصومان كل يوم فنفطر جميعاً ثم ننام.

قال: فمتى تستيقظ؟

قال: إذا نزل الحي القيوم إلى السماء الدُّنيا.

قال: هل عليك من دين؟

قال: ذنوب سلفتْ بيني وبين الحي القيوم.

قال: ألا تريد معيشتنا؟

قال: لا والله.

قال: ولمَ؟

قال: أخافُ أن يقسو قلبي، وأن يضيع ديني.

قال: أتفضِّل أن تكون حمَّالاً في السوق، جائعاً في الشمس، والعري، والهم، والغم، والكلفة، ولا تكون معي في قصر الإمارة؟

قال: إي والله.

فنزل وتركه.

فأخذ الأمير يتأمله، وينظر، وهو مشدوه بعد أن ألقىٰ عليه محاضرات من الإيمان، وطرقَ قلبه بدروس من التوحيد.

وفي ليلة من الليالي استفاق الأمير من غيبوبته، وصحا من نومه، وعلمَ أنه كان في سُبات عميق، وفي نوم طويل، وأنَّ داعي الله يدعوه ليتنبَّه.

تنبَّهوا يا رقود ... إلى متى ذا الجمود

فهذه الدار تبلى ... وما عليها يبيد

الخير فيها قليل ... والشر فيها عديد

والعمر ينقص فيها ... والسيئات تزيد

فاستكثر الزاد فيها ... إن الطريق بعيد

فاستيقظ الأمير وسط الليل، وقال لحاشيته: أنا أذهب إلى مكان، فإذا أتى بعد ثلاثة أيام أخبروا أبي الخليفة المأمون أني ذهبت وسوف ألتقي أنا وإيَّاه يوم العرض الأكبر.

قالوا: ولِمَ؟

قال: نظرتُ إلى نفسي، فإذا أنا في غيبوبة، وفي سُبات، وفي ضياع وضلال، فأنا أريد أن أهاجر بروحي إلى الله.

فخرج وسط الليل، وقد خلع لباسه، ولبس لباس الفقير، ومشىٰ في الطرقات، واختفىٰ عن العيون.

ولم يعلم الخليفة، ولا أهل بغداد أين ذهب الأمير.

وعهد الخدم به يوم ترك القصر أنه ركب إلى واسط، كما يقول أهل التاريخ، وقد غيَّر هيئته وأصبح كهيئة المساكين، وعمل مع تاجر التجَّار في صنع الآجر.

فكان له أوراد، في الصباح يحفظ القرآن، ويصوم الاثنين، والخميس، ويقوم الليل، ويتصل بالحي القيوم، وما عنده من المال ما يكفيه يوماً واحداً.

فذهب غمُّه وهمُّه، وذهب حزنه، وذهب العُجب، والكبر، والخيلاء من قلبه.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما أتته الوفاة أعطىٰ هذا التَّاجر خاتمه، وقال: أنا ابن الخليفة المأمون فإذا متُّ، فغسلني، وكفني، واقبرني، ثم سلِّم هذا الخاتم لأبي.

فغسَّله، وكفَّنه، وصلَّى عليه، ودفنه، وأتىٰ بالخاتم إلى المأمون.

وكان قد ظنَّ أن ابنه قُتِل في مكان، أو فُقِدَ، أو ذهب على وجهه في مكان لا يدري عنه، فلما رأىٰ الخاتم شهق، وبكىٰ حتى ارتفع صوته، فسألَ التاجر عنه.

فقال له الخبر.

فارتفع صوت الأمير الخليفة والوزراء بالبكاء، وعرفوا أنه عرف الطريق، لكنهم ما مشوا معه في الطريق ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

هذه قصة من قصص التاريخ، أُثبتت، وحُفِظت، ونُقلت لمن كان له قلب، أو أَلقىٰ السمع وهو شهيد.

فهل من عاقل؟

وهل متدبِّر كتاب الله؟

وهل من فطن يعلم أن السعادة في السجود لله؟ وفي تلاوة كتاب الله؟ وفي ذكر الله؟

فوالله ليست السعادة في الدور ولا في القصور، ولا في الحدائق.

ألا رُبَّ ذي طمرين في جنة غدتْ
حدائقه ملتفة ونمارقه
قد اضطردت أنواره حول قصره
يُنعم والتفت عليه حدائقه

فكم من نعيم للمساكين عند الله؟

وكم من سعادة للعارفين بالله؟

وكم من شكوى لمن جعل حياته هذه الحياة الدنيا؟ فقَدَّم المعاصي والشهوات، فما كفَّ بصره، ولا ردَّ سمعه، ولا حفظ لسانه، ولا فرجه، ولا بطنه، فعندها يندم يوم لا ينفع الندم ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وأما **جُليبيب** فهو أحد الفقراء المساكين من الصحابة، فليست له أسرة معروفة، وما عنده جسم بهي جميل، وليس عنده مال، ولا يمتلك منصباً يديره، أتىٰ إلى الرسول ﷺ في ثياب ممزَّقة، وفي هيئة الله أعلم بها، بطنه جائع، وكبده ظمأىٰ، وأعضاؤه هزيلة، ووجهه شاحب.

فقال له ﷺ: «**يا جليبيب: ألا تتزوج**»؟

قال: يا رسول الله: غفر الله لك ومن يزوِّجني؟

لا جمال، ولا مال.

لأنَّ كثيراً من الناس لا يزوِّج إلا على الدراهم والدنانير، فهو يزوج الرجل إذا رأى عنده ممتلكات، وسيارات، وشاحنات، وناقلات، وقصور، فيبيع ابنته لذلك الرجل بيعاً، كما تُباع الناقة والسيارة في السوق، ولا ينظر إلى دين ذاك الرجل، ولا إلى صلاته، ولا إلى فكره.

فقال ﷺ لجُليبيب: «**اذهب إلى بيت فلان من الأنصار، وقلْ لهم: رسول الله ﷺ يبلغكم السلام، ويقول: زوِّجوني بنتكم**».

فذهبَ فطرقَ الباب.

قال أهل البيت: مَنْ؟

قال: جُليبيب.

قالوا: ما لنا ولك يا جليبيب؟

فخرج الأب وقال: ماذا تريد؟

قال: الرسول ﷺ يبلغكم السلام، ويقول: زوِّجوني بنتكم.

فقال الوالد: الله المستعان.. لأنه يعرف أن جليبيباً فقير.

فأخبرَ امرأته فقالت: الله المستعان! لو كان غير جُليبيب.

فاجتمعا على أن يردَّاه ويرفضاه.

فسمعتْ البنت العابدة الصالحة الناصحة ما يدور، فقالت: أتردَّان أمر الرسول ﷺ عليه؟ لا والله.

فوافقوا وتمَّ الزواج.

فنشأ البيت بيتاً أساسه على الخير ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

أفمن أدخلَ ابنته بيتاً مسلماً، تالياً لكتاب الله، مستقيماً، ذاكراً لله عز وجل خيرٌ أم من أدخل ابنته بيتاً، مغنياً، متبرجاً، فاحشاً ضالاً، ظالماً؟

وعاشت هذه المرأة في سعادة، وأنجبت أطفالاً كانوا مشاعل في التاريخ وعلماء ودعاة.

فخاض الرسول ﷺ غزوة من الغزوات، وبعد القتال سألَ الصحابة: **«من تفقدون من الناس»**؟

قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً.

قال: **«ومن»**؟

قالوا: ما نفقد أحداً؟

قال: **«لكني أفقد جليبيباً»**؟

فأخذوا يبحثون عنه فوجدوه مقتولاً بجانب سبعة قتلهم رضي الله عنه.

فمسح ﷺ التراب عن وجهه، وقبَّل وجهه، وبكىٰ وقال: **«أنت مني وأنا منك»**[(١)].

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحىٰ
نوراً ومن فلك الصباح عموداً

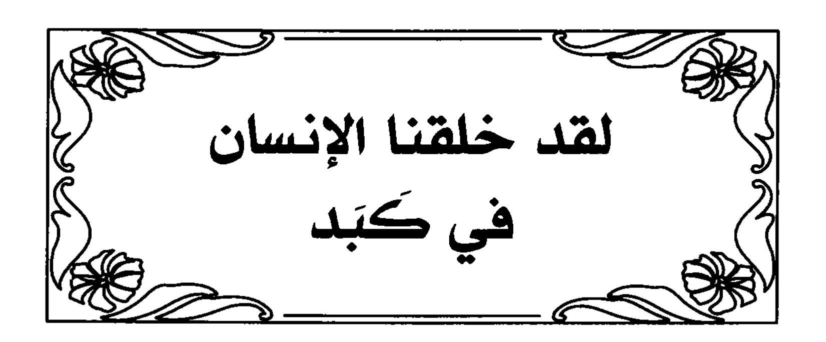
فهنيئاً لجليبيب، وهنيئاً للصادقين، وهنيئاً للمخلصين، وهنيئاً للسائرين إلى الله.

وقبحاً للمتخلفين عن ركب النجاة، وحسرة على الضائعين الضالين، الخارجين عن الله، الذين غلَّبوا هذه الدنيا التي لا تساوي جناح بعوضة ونسوا حظهم من الآخرة.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٧٢)، وأحمد برقم (١٩٢٧٩، ١٩٢٨٥، ١٩٣٠٩).



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فقضية الإنسان في القرآن قضية كبرى.

والله عز وجل يلاحق حياة الإنسان قبل أن تَحْمل به أمه، وقبل أن يكون نطفة، وقبل أن تضعه أمه على الأرض طفلاً، ثم شاباً قوياً، ثم رجلاً، ثم كهلاً، ثم أشيب، ثم ينتقل إلى الله.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا هو الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الناس، وهم في صلب أبيهم آدم، فدلَّهم على التوحيد، وقال لهم: من هو ربكم؟ من هو إلهكم؟ من هو القادر الذي يخلقكم؟ من هو الذي يستحق العبادة؟

ثم تحمل أم الإنسان بالإنسان، فإذا الله يتحدَّث عنه، وهو في بطن أمه ضاحكاً أو ساكتاً، نائماً أو مستيقظاً.

فيقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، ويقول سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

ثم تلده أمه باكياً.. وكل الناس يولدون يبكون من طعنة الشيطان التي يطعن بها ابن آدم، عند خروجه من بطن أمه إلا عيسى ابن مريم، فما بكى؛ لأن الله حفظه بدعاء أم مريم، عندما قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما نحن فبكينا عندما أتت بنا أمهاتنا. قال بعض الفلاسفة: يبكي الإنسان، لأنه خرج من السعة إلى الضيق، أي: المعنوي.

وقال آخر: بكى الإنسان من هول الابتلاء، ومن عظم المشقة التي سوف يجدها من الضيق، والهم، والغم، والحزن.

وقال آخر: بكى الإنسان؛ لأنه سوف يرى التكاليف أمام عينه، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] أبكم، أصم، أعمى، لا يأكل، ولا يشرب، ولا ينطق، فتولاه الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً　　والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا　　في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

يقول ﷺ في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]، أي: فطرة الله، فلا يولد مغنياً مطبِّلاً، ماجناً، لاهياً.

لا.. بل يولد على لا إله إلا الله. ويرفع رأسه على لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٦٥٩٩)، ومسلم برقم (٢٦٥٨)، وأحمد برقم (٧١٤١، ٧٦٥٥، ٧٧٣٦)، وغيرهم.

يقول سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠] لكن من بدَّل خلق الله؟

إنهم العملاء.

إنهم الخونة.

إنهم أعداء الإسلام، الذين بدَّلوا حال الإنسان.

بدَّلوه من مؤمن متقي، إلى ضال شقي.

ومن عبد صالح إلى عبد طالح ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لكن! ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، كقلوب الحيوانات تماماً، يحفظون، ويقرأون، ويدرسون، لكن يفقهون كل شيء إلا الدين، ويفهمون كل شيء إلا الإسلام، ويعرفون كل شيء إلا القرآن والسنة، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويقع الإنسان، فيتناوله الإسلام بتعاليمه، وسننه، ويطلب من والديه أن يؤذِّنا في أذنه لينشأ على عبادة الله، وعلى ذكر الله.

وقد أذَّن ﷺ في أذن ابن ابنته الحسن، رضي الله عنه.

فقال: الله أكبر الله أكبر، حتى أكمل الأذان.

لكن لما أتت التربية المعكوسة، وولد الابن على الموسيقى الإيطالية، ونشأ على المجلات والسهرات والمعاصي.. خرج ابناً لاهياً عاصياً عاقاً لوالديه.

يقول تعالى للإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾

[الإنفطار: ٦] من الذي خدعك؟ إنهم أولئك الطُّغمة الفاجرة، والجلساء السيؤون، الذين صرفوك عن منهج الله.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الإنفطار: ٦ ـ ٨].

أتى العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظم قديم وفتّته في يده وقال: يا محمد أتزعم أن ربك يعيد هذا العظم؟

لأن الرسول ﷺ أتى للناس ليقول لهم: إن هناك حساباً، وإن هناك عقاباً، وإن هناك يوماً آخر، وإن هناك مصيراً محتوماً نقف كلنا أمام الله فيه.

قال: أتزعم أن ربك يعيد هذا؟

قال الرسول ﷺ: **«نعم يعيده ويدخلك النار!»**[1].

وفي الجواب زيادة (ويدخلك النار)؛ لأنه تافه حقير.

فبعض الناس حقير، ولو كان عظيماً في عيون الناس، لكن كل من انحرف عن منهج الله فهو حقير، ذليل، صغير.

فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨]، قال الله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: ٧٩].

إنك، أيها المجرم، لو نظرت إلى خلقك، وأنت نطفة، ثم تنقّلت من حال الضعف إلى حال القوة، ومن حال القوة إلى الضعف، ثم متّ، لعلمت أن الله قادر على تلك الأحوال مرة ثانية.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٣/٣٠ ـ ٣١)، والحاكم برقم (٣٦٠٦)، وانظر: السيرة النبوية (٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وتفسير ابن كثير (٣/٥٨٢).

ثم يطلب منا ﷺ أن نحسن من أسماء أولادنا بعد أن يقدموا إلى هذه الدنيا فيقول: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»[١] أو كما قال.

فواجب علينا أن نختار لأبنائنا الاسم الجميل، اللامع، القوي الإسلامي، كعبدالله، وعبدالرحمٰن، وأحمد، ومحمد، ونجتنب الأسماء الدخيلة التي ميّعت الجيل والنشء الجديد وشابهت بينه وبين أعدائه.

ويصل الطفل إلى السابعة فيقول ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[٢].

ويصل إلى الأربعين، فإذا الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فالأربعون: تمام العقل، وتمام القوة، وتمام الإرادة والعزيمة.

يقول بعض العلماء: إذا بلغ ابنك الأربعين، ولم يهتد، فاغسل يديك منه؛ لأن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ...﴾ [الأحقاف: ١٥] الآية.

ويستمر القرآن مع الإنسان، فإذا شيبه قد أنذره.

قال ابن عباس، وهو يقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قال: النذير هو الشيب.

من شاب رأسه، أو شابت لحيته، ثم لم يكن له رادع، ولم يكن له منذر، وواعظ، فاعلم أنه رجل مخذول.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١١٨٥)، وأبو داود برقم (٤٩٤٨)، والدارمي برقم (٢٦٩٤)، وانظر: المشكاة برقم (٤٧٦٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٦٦٥٠، ٦٧١٧)، وأبو داود برقم (٤٩٥)، وانظر: المشكاة برقم (٥٧٢).

سيخبركم الذين في السبعين والثمانين، من الذين كلّت أبصارهم، وضعفت أسماعهم، واحدودبت ظهورهم، وملُّوا الحياة. . لا نوم، ولا هدوء، ولا لذة للطعام ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

ومن نعمِّره في الحياة، نعيده، فيصبح عقله كالطفل، وإدراكه كإدراك الطفل، وفهمه كفهم الطفل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يقول أحد الشعراء:

إن الـرجـال ولـدت أولادهـا وأخـذت أسـقـامـهـا تـعـتـادهـا
وكـثـرت مـن مـرض عـوادهـا فـهـي زروع قـد دنـا حـصـادهـا

أي: إذا أتى لأولادك أولاد، وأصبحت جداً، فانتظر الموت، وانتظر لقاء الله.

قال سفيان الثوري: من بلغ الستين فليشترِ كفناً.

ثم يأتي الختام، فإذا هو العمل الصالح، دون غيره مما يبقى في هذه الدنيا، ولا يرحل معنا.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

ويأتي الإسلام، ليقول للإنسان: إذا أتتك سكرات الموت، فاحرص على أن تموت على لا إله إلا الله.

يقول ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**[1].

لكن لا يثبت على لا إله إلا الله إلا المؤمن.

ولا يقولها في سكرات الموت إلا المؤمن: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٥٢٩، ٢١٦٢٢)، وأبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم برقم (١٢٩٩)، وانظر: المشكاة برقم (١٦٢١).

ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ذكر الذهبي المحدِّث الكبير أن أبا زرعة المحدث، رحمه الله، حضرته سكرات الموت، فأُغمي عليه، فأراد تلاميذه أن يذكروه بلا إله إلا الله، وهو مغمى عليه، ولكن استحيوا أن يقولوا له: قل لا إله إلا الله لأنه إمام المسلمين.

فقالوا: نتذكر سند حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله.. فإذا ذكّرناه بالسند سوف يتذكر المتن هو؛ لأنه محدِّث.

فقال أحد التلاميذ: حدثنا فلان بن فلان.

فاستيقظ فسمع السند، ولكن هم كانوا من هول المصيبة وهول الكارثة قد نسوا السند فأخطأوا فيه.

فقال: حدثنا الربيع بن سليمان، قال: حدثنا فلان، قال: حدثنا فلان عن معاذ، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**» ثم مات! هذه كرامة الأولياء.

وأما غيرهم فإنهم يموتون على ما عاشوا عليه من الخنا والفجور.

قيل لسفيه معربِد وهو في سكرات الموت: قل لا إله إلا الله.

فقال: أين الطريق إلى حمام منجابي!

فمات عليها، لأنه عاش عليها.. ومن شبَّ على شيء شاب عليه ومات عليه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

يقول أحد العلماء يخاطب الله:

وحقك لو أدخلتني النار لقلت للذين بها قد كنت ممن أحبه

وأفنيت جسمي في علوم كثيرة وما منيتي إلا رضاه وقربه

أما قلتموا من كان فينا مجاهداً سيحمد مثواه ويحسن شربه

ثم يكون البعث بعد الموت؛ ليحاسب الله هذا العبد، والإنسان الذي خلقه في كَبَدٍ، وابتلاه بسائر المصائب، والمحن، والنعم.

ولكن أهل الماديات، لا يفهمون هذا، ولا يؤمنون به، فمن أصولهم التي يدرِّسونها لطلابهم ولتلاميذهم، وقد كادت أن تصل إلينا قولهم: بأن المادة قديمة، لا تفنى، ولا تبيد، ولا تعود، وهذه نظرية كافرة أتى بها الكفرة.

بل الله يُفني ما يشاء من المواد، ويبقي ما يشاء، فله الحكم وحده.

ولكن مقصودهم من هذا: أن الإنسان إذا مات، أنه لا يعود كما كان، وإنما يتحول لمادة أخرى، وهكذا غيره.

فجاء الإسلام ليقرِّر حقيقة البعث، ويركز عليها؛ لكي لا تزل العقول إلى تلكم النظريات الفلسفية الكاذبة.

فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

فيا عباد الله.. استعدُّوا للموت، وللبعث بعد الموت، فأنتم لا زلتم في تنقلات هذه الحياة، ولا زلتم في أطوارها السابقة، فبادروا بالتوبة قبل أن تفوتكم، ويسبقكم الوقت.

أيها المسلمون، من هذه الموعظة السابقة نأخذ دروساً مفيدة لنا:

أولاً: أن الإسلام معك منذ وجودك في بطن أمك إلى أن تدخل الجنة أو النار، نعوذ بالله من النار.

فهو يسير معك في جميع أطوارك وتنقلاتك، ويُبصرك بحاجاتك وبمهماتك.

ثانياً: أنك لم تخلق هملاً، بل خلقت لغاية عظمى، وهي: عبادته سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فواجب عليك، وقد هيأك الله لأسباب تلك العبادة، أن تقوم بها دون توانٍ أو كسل.

قد هيؤك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ثالثاً: أن الذي لا يسير مع الوحي الربَّاني، فقد سفِه نفسه؛ لأنه اختار المناهج الأرضية، وترك منهج رب الأرض والسماء.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

رابعاً: أننا لسنا في حاجة لأي مبدأ، وقانون غير الإسلام، وغير رسالة محمد ﷺ.

فلنعد إلى القرآن والسنة؛ لنهتدي بنورهما في هذه الدنيا، وأمام هذه الابتلاءات والكبد الذي خلقنا الله فيه.

فمن اعتقد أنه سيهتدي بغير هدى الله فهو ضال مضل، قد صرفه الله عن الهداية، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.





الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

أيها المسلمون، آيات الله في كتاب الكون كثيرة، فالله يحدثنا عن نفسه بآياته، بالليل والنهار، بالسماء والأرض، وبالماء والضياء.. بالبحار والأنهار.

فهل قرأنا كتاب الكون؟

وهل تدبَّرنا آيات الله؟

وكتاب الفضاء أقرأ فيه سوراً ما قرأتها في كتابي

أتى رجل من الصالحين قبل زمن قصير بورقة نخلة إلى عالم من العلماء لا يزال حياً مكتوب على هذه الورقة لفظ (الله) بالخط العربي الكوفي الجميل.

سخّرها الله لتكتب اسمه لتقول بلسان حالها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

انظر لتلك الشجره ذات الغصون النضره
من شادها من بذره حتى استقامت شجره
انظر إلى النحله في بستانها منقعره
من الذي علمها مصّ رحيق الثمره
انظر إلى الليل غفى من هزّه وأظهره
انظر إلى لوح الكون من زانه وسطَّره
انظر إلى الأموات من يحييهم من مقبره
ذاك هو الله الذي أنعُمَه مُنْهَمِرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

من الذي يتدبر؟

من الذي يقرأ كتاب الكون؟ هل هو المغنِّي، أم المطرب، أم المزمّر، أم الضائع.. صاحب المخدِّرات.. عبدُ الأُغنيات.

لا..

الذي يذكر الله قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، هو الذي يقرأ كتاب الكون، ويتأمل في أسرار الحياة.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
فيا عجباً كيف يُعصى الإلٰه أم كيف يجحده الجاحد

فرعون علم أن لا صانع إلا الله.. ولا مدبِّر إلا الله.. ولا رازق

إلا الله.. ولكنه كفر بلسانه، فقال موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

يقول الكاتب الأمريكي صاحب كتاب (الإنسان لا يقوم وحده): تأملت النحلة، كيف تذهب آلاف الأميال من خليتها، ثم تعود من وراء البحار، والقفار، فلا تخطىء، وتأوي إلى خلية غير خليتها.. من الذي دلها وقادها؟ من الذي علمها؟ كأن عندها جهاز أريل يطلق ذبذبات.

فقال له علماء الإسلام: إن الله يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]، وأوحى أي: ألهم.

فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فيا مسلمون! أقبل الكفار اليوم المخترعون يؤمنون. ويدخلون في هذا الدين.. وأخذ بعض شبابنا ينسحب من هذا الدين، فسبحان الله!

مؤلفو كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ثمانية أمريكان.. كل منهم قد أتى بحقيقة تثبت وجود الله، وعظمة الله، وكبرياء الله.

نزل أحدهم في سفينة أبحرت في المحيط الأطلنطي، فأصبحوا في ظلام الليل، وفي ظلام اليم، وفجأة انقطع جهاز الإرسال عن السفينة فانقطعوا عن البر، والبحر، والجو، والجبال، والوهاد، ولم يبقَ إلا الاتصال بالله.

يقول الأمريكي الذي يروي القصة: فلما أبحرنا أظلمت بنا الدنيا، فحاولنا الاتصال فما وُفِّقنا وفشلنا، فانقطع اتصال الإرسال، وفي الأخير اتصلت قلوبنا بالله!

يقول الله عن كفار قريش، وعن كل مشرك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] أي: إذا هاجت الريح، وإذا تلاعبت بالسفينة الأمواج، انقطعت اتصالاتهم بالناس، واتصلوا بالله.. مثلما فعل يونس بن متى، عليه السلام، انقطع اتصاله بالناس، وأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة اليم، وظلمة الحوت، وظلمة الليل، فقال في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فأنجاه الله.

قال الأمريكي: فأخذنا نناجي الله.

فنجّاهم الله إلى البر.. وأخيراً أعلنوا إسلامهم، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

آخر النظريات التي اكتشفها أحد الروس: أن للنبات ذبذبات يطلقها على النبات الآخر.. وللحشرات، وأن هذا دليل على قوة عظمى ليست في قوة البشر!

قلنا له: يا ملحد إنها قوة رب البشر.. لا إله إلا الله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

سبحان الله! من أعطى حيوانات، ودواب القطبين فراءً؟ وأعطى حيوانات الصحراء أربع أرجل؟ وأعطى الطير في السماء أجنحة؟ وأعطى السمك في الماء مجاديف؟

فما أحكمه.. وما أعظمه.. وما أقدره.

فيا إخواني.. هذا الشعور ينبغي أن يتحوّل إلى إيمان وعمل.. لا إلى مجرد علم.. قال الله عن الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

فهذه النصوص، والأحداث التي سمعتم، إذا لم يُستفد منها العمل، فلا فائدة منها.

وتخزين العلم في الذهن دون خشية الله، والإيمان به، والعمل بمرضاته، إنما يُكتب عليك حجة تلقى بها الله.

والذي نستفيده من هذه الأصول، والأسس، والآيات البيِّنات في الكون، والاكتشافات العلمية ثلاث فوائد:

أولها: مطالعة أسماء الله وصفاته في الكون ليتضح أن الله حكيم مدبِّر خالق رازق، أحسن كل شيء خلقه، لا تجد في خلقه تفاوت ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فكل شيء يدلك على الله.. انظر إلى جسمك.. انظر إلى حركاتك، وإلى كلماتك.. انظر إلى اندفاعاتك، ومشاعرك، وخواطرك، فأنت عالم من العوالم، وأنت كون، وفيك اختفى الكون الأكبر، فلماذا لا تتفكر في نفسك فتكون عبداً لله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

فأول فائدة لنا هي: مطالعة أسماء الله في الكون وصفاته.. فإذا رأينا الزهرة الحمراء تفكرنا في من صبغها ولوّنها وجمّلها.

الفائدة الثانية: أن يتحول هذا الشعور وهذا الإدراك.. وهذا الفهم إلى إيمان.

فلا يكفي أن تعرف أن من خلق الزهرة هو الله.. ولكنْ لا تصلي، ولا تزكي، ولا تسبّح، ولا تذكر الله، لأن المخترع الكافر يعرف أن هذا صنع الله لكنه ما آمن بالله.

الفائدة الثالثة: أن تذكر الله بآياته، فتنظر إلى كتاب الكون الذي عرضه الله لك وتذكره سبحانه وتعالى.

تنظر إلى الشجرة فتقول: سبحان الله!

وإلى الجبل فتقول: سبحان الله!

وإلى الماء، وإلى الضياء، وإلى الأرض، وإلى السماء، وإلى الجبال، وإلى الوهاد، فتقول: سبحان الله!

نزل القرآن على محمد ﷺ فكان أول سورة نزلت هي (اقرأ)، وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، لكنه ﷺ كان يخرج إلى غار حراء، ويُخرج رأسه من الغار؛ ليقرأ في صحيفة الكون، فيقرأ في النجوم الساطعة، وفي الشمس الطالعة، وفي الوهاد، وفي الماء النمير، وفي الجدول والغدير، وفي الأنهار والأشجار، فيقرأ كل هذه الأشياء. ولذلك قال أهل العلم في الآية (اقرأ) أي: اقرأ الكون بما يوجد فيه لتعرف الله تعالى.

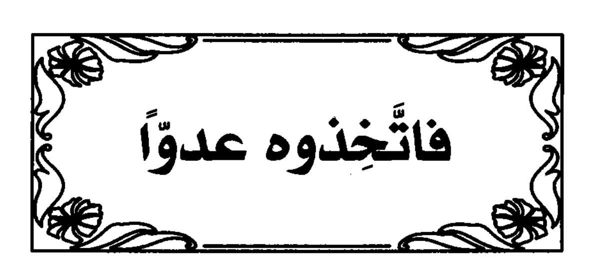
فلا يكن أحدنا غافلاً عن هذه الآيات العظيمة، إذا خرج إلى نزهة، أو إلى بريّة، ينظر إلى أعمال البشر الحقيرة، ويدع عمل، وصنع رب البشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فنسأل الله أن يقينا من النار، وأن يجعلنا ممّن يتفكر في أنفسنا، وفي آيات الله العظام.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁



فاتَّخِذوه عدوّاً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسَلين، وبعد

فإن للشيطان مع الإنسان قصة، بدأت منذ بداية الخليقة، ولم تنته بعدُ، وستظل إلى قيام الساعة.

وهذه القصة هي قصة العداوة المتأصِّلة، التي كانت بدايتها مع أبينا آدم، عليه السلام، واستمرت مع ذريته من بعده.

ولقد حذَّرنا الله ورسوله من الشيطان، وإنني من خلال هذه الأوراق سوف أقدم شيئاً موجزاً عن مكائد الشيطان، راجياً من الله تمام النفع بها وأن يجعلها في ميزاننا إنه على كل شيء قدير.

• تحذير الله رسوله من الشيطان:

لقد أنذرنا الله عداوة الشيطان، وأخبرنا أنه عدو لنا، وخوَّفنا من مصائده ومكائده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾. [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩]

وقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فالشيطان قائد أوليائه إلى النار، والشيطان حقيقة مع كل إنسان إلا مع محمد ﷺ. ولقد اتضح من الأحاديث النبوية أنه يجري في الإنسان مجرى الدم. ولذلك وصفه ﷺ بهذا الوصف، وأخبر الرسول ﷺ أن كل إنسان معه قرين، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «**حتى أنا، ولكن الله أعانني عليه فأسلم**»[1].

قيل: أسلم من الإسلام. وقيل: أسلم فِعْل، أي: أسلَمُ منه، والأول هو: الصحيح، فقد أسلم شيطانه ﷺ.

والشيطان يَعِدُ الناس بالأماني الكاذبة، وقد وقف للطوائف والأجناس بالمرصاد.

فأما العلماء: فأملى عليهم برنامجاً خاصاً خذل من خذل منهم، وسلِم من سلِم منهم، فقال للعالِم: لا تخرج إلى الناس؛ فإنك إن خرجت، شُغِلت بالشهرة، والرياء، والسمعة، والتصدر للناس، فحبسه في بيته، وسجنه في داره، فترك العالِمُ للشيطان المجال مفتوحاً، وترك الميدان للضالين الغاوين، فاشتغل دعاة الضلالة، وعلماء الجاهلية من فرق اليهودية، وأذناب العلمانية، فأخذوا الميدان دون المسلمين، وكانت أكبر جرائم هذا العالِم: أنه كتم العلم الذي في صدره. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨١٤)، وأحمد برقم (٣٦٤٠، ٣٧٧٠، ٣٧٩٢).

وأتى الشيطان إلى السلاطين: فوعدهم مُلكاً عتيداً، إذا سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال، وأخبرهم: أن سلطانهم لا يقوم إلا على هذا، فغفلوا عن السياسة الشرعية، وعطلوا الأوامر الإلهية، وأنكروا الأحكام التي أنزلها الله عز وجل، وهي: الأحكام القرآنية.

وأتى إلى الشباب فوعدهم بالأماني الكاذبة، وقال: اليوم خمر، وغداً أمر! شبابك شبابك، اغتنمه في اللذات، فإنك إذا شبت تبت وعدت إلى الله!

فأصبح الشاب، إلا من رحم ربك، عبداً لنزواته، وشهواته، وسجيناً في حب الأغنية الماجنة، والعشق المُهْلِك، فأصبح شاباً ممسوخاً في مسلاخ الدابة، وفي مقام البهيمة، لا يعرف معروفاً، ولا يُنكِر منكراً.

ورد عن (عبدالقادر الجيلاني) السنِّي الحنبلي أنه قال: إن الشيطان تصوَّر له في المنام في صورة هائلة في السماء، فقال له الشيطان: يا عبدالقادر، أنا ربك قد أحللتُ لك الحرام.

فقال عبدالقادر: كذبت يا عدو الله.. فأنت الشيطان، وإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يحل الحرام.

وتمثل الشيطان للإمام أحمد، وهو في سكرات الموت، فقال لأحمد، وهو يعض على أصبعه: فُتَّني يا أحمد.. فكم خدعت من رجلٍ إلا أنت.

فقال أحمد: لا.. بعدُ، لا.. بعدُ، أي: ما أمِنت مكرك للآن، وما استأمنت لخداعك، وما استسلمت لقيادتك حتى نجى الله الإمام أحمد بالقول الثابت في الدنيا، فلقي ربه، وهو على ذلك لم يتمكن الشيطان منه.

وأتى إلى «الصوفية»، فأحدث لهم طُرقاً بِدْعية، حتى أخرج

الكثير منهم عن الملة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وأتى إلى الفقير، فسخّطه على الله، وعلى القضاء والقدر، حتى كفر بسخطه في قضاء الله وقدره.

وأتى إلى الغني فأدخله النار؛ لأن الشيطان جعل همه الأول الدينار والدرهم، وجعله يتعدى، ويظلم، ويتجبر بماله، وينسى الله عز وجل، وهذا من مكائده عليه لعنة الله.

● الآية الحافظة من الشيطان:

قال أبو هريرة، رضي الله عنه وأرضاه، كلفني رسول الله ﷺ بحراسةِ تمر الصدقة في المدينة، فقمت على تمر الصدقة، فبينما أنا حارس.. وإذا برجل في صورة شيخ، قد أقدم عليّ، فأخذ يضم التمر ويحثو منه فأمسكت به، فشكى إليّ العيال، وشكى إليّ الحاجة والفقر، فرحمته وأطلقته على أن لا يعود.

وفي الليلة الثانية، أتى فحثى التمر، فأخذت بمجامع ثيابه، وأردت أن أرفعه إلى الرسول ﷺ، فشكى لي وتذمّر، وذكر الحاجة، والفقر والعيال فتركته.

وأتى في الليلة الثالثة، فأخذته، فشكى، فما تركته، وعزمت على أن أسلمه إلى رسول الله ﷺ.

فقال: أطلقني، وأعلمك آية، إذا قلتها في ليلتك كان عليك حافظ يحفظك من الشيطان، وكان الصحابة حريصين على الخير، فقال أبو هريرة: ما هي؟

قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فتركه أبو هريرة.

ثم ذهب، رضي الله عنه، فأخبر الرسول ﷺ. فتبسّم ﷺ، وقال: **«أتدري من تخاطب يا أبا هريرة منذ ثلاث؟»**، قال: قلت: لا يا رسول الله.

قال: **«ذاك الشيطان! أما إنه صَدَقَك وهو كذوب»**[1]. صدقك في آية الكرسي لا تقرأها إلا كان عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، ولكنه كذوب دائماً.

وهنا درس عظيم يدل على أنه لا ينجو الإنسان من الشيطان إلا بفضل الواحد الأحد، وبذكر الله عز وجل.

وعلى أن الحكمة تؤخذ، ولو من الكافر الضال، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها.

والشيطان له تلبيسات، ومن حكمة الله أن خلق الإنسان ليميز الخبيث من الطيب، والله جعل هناك جنة لأوليائه، وناراً لأعدائه.

قال ﷺ: **«أتى الشيطان للإنسان فقال له: لا تُسلم فإنك إن أسلمت تحملت التكاليف فعصاه الإنسان فأسلم، فأتاه فقال: لا تهاجر فإنك إن هاجرت تركت أهلك وأطفالك، فعصاه فهاجر.**

فأتاه فقال: لا تجاهد فإنك إن جاهدت قُتلت، وسُفك دمُك، فعصاه فجاهد»[2]، فلا يزال الإنسان يعصي الشيطان حتى يدخل الجنان، ويفوز برضوان الواحد الديّان.

والشيطان، قرآنه: الغناء، ورُقيته: الشعر، وبيته: الحمام،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٠)، ومسلم برقم (٨٠٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٥٥٢٨)، والنسائي برقم (٣١٣٤)، وانظر: صحيح النسائي للشيخ الألباني برقم (٢٩٣٧)، وصحيح الجامع برقم (١٦٥٢).

وموسمه: الأسواق، وأحبابه: كل عدوٌ لله..، ورأس ماله: الأماني..، فمن اتبعه، أخذه حتى يُكبه على وجهه في النار، وما حدثت الفواحش في العالم، وما صُنعت الكبائر، ولا ضل الشباب والشيب، ولا سُفكت الدماء، ولا عُطلت الحدود، إلا بمسؤولية الشيطان الرجيم، عليه لعنة الله.

فهو الذي جعل الشباب ينحرف عن المسجد إلى المقهى، وعن المصحف إلى المجلة الخليعة، وعن السنة إلى البدعة، وعن التلاوة إلى الأغنية، وعن رفقة الخير إلى رفقة الضلالة والغواية، وعن الطاعة إلى الفحشاء، وهو الذي تلقَّف شباب الإسلام ألوفاً مؤلفة، فصرفهم عن طاعة الله، فانظر إليهم، كيف انحرفوا، وكيف انصرفوا، لولا بقية باقية من الشباب الخيّر والمستقيم، الذين عصمهم الله من الشيطان.

أما رأيت، كيف صرفت الأموال في المعصية؟ أما رأيت كيف سافر المسافر ليعصي الله، ويخرج من الجزيرة، ويظن أن الله ليس إلا في الجزيرة فقط؟ ولا يدري أن الله معه في كل بلد، في الجزيرة، وخارج الجزيرة، فيرتكب من الفواحش كالجبال، ويذهب ماله، ودينه، وشرفه، وعرضه؛ لأنه أطاع الشيطان.

فيوم أطاع الإنسان الشيطان، ترك المسجد، ورقد على الفراش، وخاف الماء والبرد، فما حضر الجماعات، وارتكب السيئات، وأغضب رب الأرض والسموات.

ويوم أطاع الإنسان الشيطان، أطلق بصره للحرام، فتناول بصره المرأة الفاتنة، والصور الخليعة والمحرمة، فوقع في الزنا، وكسب ماله من الربا، ووضع ماله في بنك الربا، ليأخذ حصته من لعنة رسول الله ﷺ الذي قال: «**لعن الله آكل الربا، وموكله وكاتبه**

وشاهديه»، قال ﷺ: «وهم سواء»، وفي لفظ: «وهم في الإثم سواء»[١].

• قصة برصيص (أو برصيصا) مع الشيطان:

ولذلك فإنه يجب علينا، أخي المسلم، ألا نأمن مكائد الشيطان، ولا مصائده، وأن نُعد له العدة، وأن نستنفر قوانا مستعينين بالله الواحد الأحد، فلا عاصم لنا إلا الله.

فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

قال ابن جرير وابن كثير: هذه الآية نزلت في عابد من عبَّاد بني إسرائيل، اسمه: برصيص، وكان عابداً من العباد الكبار، قد سكن في صومعة لعبادة الله، ولكن غلبت عبادته على علمه، والعالِم أشد على الشيطان من ألف عابد.

فلما عبد الله، وسجد لله، وأكثر من ذكر الله، أراد الله أن يبتلي إيمانه، وأن يمتحن يقينه ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢] فجلس في صومعته، فأتاه رجال مجاهدون من بني إسرائيل، وقالوا: يا برصيص، إنا نريد الجهاد في سبيل الله، وعندنا أخت، هي في بيتنا، بجانب صومعتك، وليس لها بعد الله إلا أنت، فعليك أن ترعاها، حتى نعود من الجهاد، قال: حُباً وكرامة.

فخرج هؤلاء إلى الجهاد في سبيل الله، ومكث برصيص في صومعته يتعبَّد لله.. فأتى الشيطان إليه.. وقال: يا برصيص، إن هذه المرأة في ذمتك، وهذه الفتاة في عُهدتك، وأنت إذا تركتها فسوف

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٥٩٨)، وأحمد برقم (١٣٨٥١).

تستوحش، فلو أخرجت رأسك في الصباح، فسلَّمت عليها، وهي متحجبة في بيتها، ما ضرَّك ذلك شيئاً، فأخذ بوصية الشيطان.. فأطلَّ برأسه، وسلَّم عليها.

فأتاه ثانية، وقال: لو نزلت بجانب بيتها؛ كي لا يأتيها أجنبي، أو يخوفها مارد! فنزل بجانب البيت، وما رآها.

وأتاه ثالثة، وقال: إنها فتاة غريبة مستوحشة، خرج أهلها للجهاد، فمن يؤنسها ويحدثها، فنزل، فآنسها، وحدَّثها، وهي متحجبة.

فأتاه رابعة وقال: أنت عالم، ذكيّ ومحفوظ من الله، وتخاف الشيطان، فاقترب منها، فقبِّلها.. فوقع في الفاحشة فحملت!

فلما حملت قال له الشيطان: إذا أتى إخوتها، ورأوا هذا المنكر، فإنها سوف تُخبرهم، فاتهمك الناس فسقطْتَ من أعينهم، فاقتلها خيراً لك.

فذبحها، وحفر لها قبراً في بيتها ودفنها.

فأتى إخوتها من الجهاد، فقالوا: أين أختنا؟

فبكى برصيص، وتندَّم، وأخرج دموع النفاق، والسمعة، والرياء، وقال: مرضَت، وكانت زاهدةً عابدةً، فدفنتُها بعد أن دعوتُ لها!

فبكوا عليها، وصدّقوه، وناموا تلك الليلة.

فأتى الشيطان لأخيها الأكبر، وأخبره أن برصيص فعل بها الفاحشة وقتلها.

وأتى الثاني، والثالث في المنام، وأخبرهما كما أخبر الأول.

فأصبحوا، فتحدَّثوا بما رأوا في نومهم، فاتفق رأيهم على أن يقتصوا منه، فذهبوا، وكشفوا المكان الذي دلهم الشيطان عليه، فوجدوها حامل ومقتولة.

فأتى الشيطان فقال: لا ينجيك يا برصيص، إلاّ أن تسجد لي سجدة لأحميك، فكفر بالله، وسجد للشيطان سجدة!

فقتلوه وصلبوه(١).

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

فيا أخي المسلم، عليك بالاعتصام بالله، واللجوء إلى الله، فاحفظ الله يحفظك؛ لأنه هو القوي المتين، واركن إلى الله، وتوكل على الله، فوالله إن لم يحفظك ربك فلا حافظ لك.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً   فإنه الركن إن خانتك أركان

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] قيل: ادخلوا في الإسلام جملة وتفصيلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وخطوات الشيطان إملاءاته ووسوسته، ومنهاجه، وأباطيله، ومصائده، ومكائده.

● كيف تتحصن من الشيطان:

ولا ينجو العبد من الشيطان إلا بأربعة حصون:

أولها: ذكر الله عز وجل دائماً: قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ابن عباس، رضي الله عنه، الشيطان جاثم على قلب العبد، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٨/٤٩ ـ ٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٧)، والحاكم برقم (٣٨٠١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٤٢).

فلا ينجو العبد من الشيطان إلا بذكر الله الواحد الأحد.. فهو أعظم حرز في الحياة.. وهو: سلاح الموحدين، وهو: منشود الأولياء الصالحين، وهو: حصن العابدين، وهو: سيف العارفين.

فمن اهتدى إلى ذكر الله كفاه، وحماه، ووقاه، ومن غفل عن ذكر الله وقع في خطوات الشيطان، وتلبيساته، وفواحشه.

الثاني: **الوضوء**: فلا يأتي الشيطان إلا أهل النجاسات، وأهل الحدَث دائماً.. فمسكنه: دور النجاسات، والخرابات، والقلوب التي ما عرفت رب الأرض والسموات، فالشيطان يلجأ إلى النجاسة، ويحبها، ويتلبس بأهلها.. فمن داوم على الوضوء، والطهارة، تحصَّن من الشيطان، وابتعد عنه الشيطان، وأكثر الذين يصيبهم المس والصرع هم أهل النجاسة والحدث، يأتيهم الشيطان فيتلبَّس بهم؛ لأن الشيطان ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

الثالث: **الصحبة الصالحَة**: أصحابك: الأبرار الأخيار، أهل الصلوات الخمس، وأهل القرآن، وأهل المسجد، وأهل السنة.. فهؤلاء يحاربون الشيطان، ويعينونك على الشيطان، «**وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[1]. ويوم ترافق عصابات الإجرام، وشلل البغي، الذين نصبوا الكمائن لأولياء الله، ووقفوا في طريق الأنبياء والرسل.. حينها سوف تنسلخ من منهجك، وعبادتك، وإرادتك، وتبيع حظك من الله.. بغضب من الله، وبمقت من الله، وبلعنة من الله.. يقول الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي ... ولو كنا سواء في البضاعة

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٢٠٣، ٢٦٩٦٨)، وأبو داود برقم (٥٤٧)، والنسائي برقم (٨٤٧)، وانظر: المشكاة برقم (١٠٦٧).

وقال ابن المبارك:

وإذا صاحبتَ فاصحب ماجداً ذا عفاف وحياء وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه، تزوَّدوا من الإخوان الصالحين، فإنهم ذخر في الدنيا والآخرة.

قالوا: في الدنيا نعم، ولكن في الآخرة لماذا؟

قال: أما يقول الله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

فيا أخي في الله، اتق الله في الرفقة الصالحة، فإنهم جندك، وأعوانك في الطريق إلى الله.

الرابع: ترك المعاصي والفواحش، والإعراض عن الذنوب، وكثرة الاستغفار، والتوبة، والرجوع إلى الله، والإنابة إليه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فاللهم اجعلنا من الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروا لذنبهم.

أخي المسلم.. هذه هي مكائد الشيطان، وتلك طرق الوقاية منه، والتغلب عليه، والتحصن منه.. أرجو الله العلي العظيم أن ينفع بها، وأن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما جهلنا، وأن يزيدنا علماً به، وخشية منه، ورغبة ورهبة إليه.. هو ولي ذلك والقادر عليه.

سبحان ربك رب العزَّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁



الأمر بتقوى الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فالأمر بتقوى الله، هي: وصية الله للأولين والآخرين، ومن لم يعمل بهذه الوصية، فإنه سوف يخسر، ويهلك، ويندم، ولذلك قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فتقوى الله وصيته سبحانه وتعالى للأولين والآخرين.

ومعنى الحياة، هو: تقوى الله عز وجل في القلوب.

كثير من الناس يظن أن معنى الحياة: أن يأكل، ويشرب، ويتمتع، ويركب، ويسكن، ويتكلم، وينام، ويقوم.

إن هذا جَهل مفهوم الحياة، فما هذه إلا حياة بهيمية، فالكافر وهو كافر، يأكل، ويشرب، ويتمتع، ويركب، ويسكن، ويقوم، وينام، لكنه كافر ـ لأن معنى الحياة: أن تخرج من الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية، وأن تنقذ نفسك بتقوى الله من غضب الله، لذلك يقول عزَّ مِن قائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أو من كان ميتاً في شهوته، وفي ضلالته، وفي غوايته يتبع كل ناعق، فأحياه الله بالإيمان، وبلا إله إلا الله، وشرح صدره لهذا الدين، كمن جعله الله سبحانه وتعالى غاوياً ضالاً مطروداً من رحمته، ومن نوره.

فهذا كيف يعيش؟ ولماذا يعيش؟ وإلى أين يسير؟

ولذلك يقول ابن تيمية، رحمة الله عليه: من اعتقد أنه سوف يهتدي بغير هدى الله الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله، ﷺ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لأن المؤمن يولد مرتين، والكافر يموت مرتين، فميلاد المؤمن يوم أتت به أمه يوم عرف الحياة، يبكي من ظلم الحياة، ومن غوايتها، ومما سوف يواجهه من مصاعب، ومشاكل، ولذلك يقول الشاعر:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

فأنقذ نفسك، ألا تأتيك سكرات الموت، ولا يأتيك وعد الله واليوم الموعود، وتشتد عليك السكرات.

فأنقذ لتبتسم في تلك الساعة.

ولذلك يقول الله عز وجل في هذه الساعة: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

﴿تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٣].

فالحياة كل الحياة أن تحيا بالقرآن، وأن تحيا بالإيمان، وهذه هي الحياة الثانية، أو المولد الثاني.

وأما الكافر، فإنه يموت مرتين: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١]، يموت الكافر يوم يكتب الله عليه الموت كموت البهائم.

ويموت قبلها يوم مات قلبه، فما استنار بنور الله، وما عرف منهج الله، وما اهتدى بهدى الله.

ولذلك كانت وصية الله عز وجل للأولين والآخرين تقواه تبارك وتعالى.

يقول عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قيل لابن مسعود، رضي الله عنه، أحد جيل محمد، وشباب الصحابة، ذلك الجيل الذي ما عرفت البشرية على أطوارها جيلاً، ومجتمعاً كذاك المجتمع الأول، مجتمع الصحابة الذين وزَّعوا لا إله إلا الله على البشرية، فبلغوا بعد خمس وعشرين سنة السند، وطشقند، والأندلس، وجنوب أفريقيا؛ لأنهم عرفوا الله، ومنهج الله، ولا إله إلا الله.

قيل لابن مسعود: ما هو حق تقاة الله.

قال: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

فمن كفر نعمة الله فما اتقى الله، ومن عصى الله فما اتقاه سبحانه وتعالى، ومن نسيه سبحانه وتعالى أنساه الله نفسه، ومستقبله، وولده، وبيته، وأسرته، ومكتبه ومنصبه، في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

ولذلك يقول عزَّ من قائل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقف أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه، وهو في عهده بعد موت عثمان أزهد الناس، وأخشى الناس، وأعلم الناس، لأنه تربية رسول الله ﷺ.

وقف على منبر الكوفة، فسُئل عن التقوى.

قال: هي الخوف من الجليل سبحانه وتعالى، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

اسمع لكلمات النور، وحرارة الإيمان، التي بعثها جيل محمد ﷺ في قلوب الناس.

(هي الخوف من الجليل) والجليل هو: الله، (والعمل بالتنزيل) فالذي يتقي الله، ثم لا يعرف ماذا يتقي، ولا تكون تقواه على بصيرة من الكتاب والسنة ما اتقى الله، (والرضا بالقليل) أي: ألا تكون الدنيا أكبر همك، بل يكفيك منها ما يكفي المسافر، (والاستعداد ليوم الرحيل) هذه هي تعريفها عند علي رضي الله عنه وأرضاه.

وقال عمر لكعب الأحبار: ما هي التقوى؟ صف لي التقوى.

قال: يا أمير المؤمنين، أمررت بأرض أو بطريق ذي شوك؟

قال: نعم.

قال: فماذا فعلت؟

قال: تحفزت وشمّرت.

قال: كذلك التقوى.

ما دام أن الطريق هذه ذات الشوك، يتحفز فيها المار، فكذلك الحياة الدنيا، فمن أراد تقوى الله فليتحفَّز وليتحرَّز، فإن الله عز وجل يحفظه.

ولذلك في الحديث عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة إذا اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

فتقوى الله معناها: المحافظة على أمر الله، والانتهاء عن ما نهى الله عز وجل.

● **تقوى الله في اللسان:**

وتقوى الله تكون في اللسان، وأعظم ما ابتُليت به اللسان. ولذلك يقول بعض أهل العلم: تسعة أعشار الذنوب من اللسان.

واللسان هو الذي يجرّ على المؤمن الذنوب والخطايا، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [قٓ: ١٨].

ووصف المتقين، عزَّ مِن قائل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ٣] يقول عقبة بن عامر أحد الصحابة: يا رسول الله، ما النجاة؟ أي: ما هو الأمر الذي ينجيني من غضب الله، ومن سخط الله، ومن عذاب الله.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، والبيهقي في الشعب برقم (١٠٠٠٠)، والحاكم برقم (٦٣٠٤)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

قال: «**كُفَّ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[١].

وقال معاذ: يا رسول الله، ما هو العمل الذي يقرّبني من الجنة ويبعدني عن النار؟

قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه**». ثم ذكر له ﷺ الأمور التي تقرِّبه من الجنة، وتنجيه من النار، ثم قال في آخر الحديث: «**ألا أدلك على مِلاك ذلك كله**».

قال: قلت: بلى، يا رسول الله.

قال: «**كُفَّ عليك هذا، وأخذ بلسان نفسه**».

قال معاذ: أإنا لمؤاخذون يا رسول الله بما نتكلم به؟

قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم أو قال على رؤوسهم إلا حصائد ألسنتهم**»[٢].

فنعوذ بالله من أضرار اللسان، ولذلك عرف الصالحون ضرره، وعلموا أنه لا يمكن أن تأتي تقوى الله إلا باجتناب ضرر هذا اللسان.

يقول أحد التابعين: رأيت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه وأرضاه، وقد أخذ بلسان نفسه، وهو يحاسب نفسه، ويبكي، ويقول: هذا أوردني الموارد، أي: موارد الهلاك.

هذا وهو أبو بكر الصديق، صاحب القدم الثابت في الإسلام، والأول في الاستجابة من الكبار، وصاحب الإنفاق في سبيل الله، وخليفة الإسلام بعد رسول الله ﷺ، الذي يُدعى يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية؛ لأن للجنة أبواباً ثمانية كما تعرفون.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٨٨٣، ١٦٩٩٩، ٢١٧٣٢)، والترمذي برقم (٢٤٠٦)، وانظر: المشكاة برقم (٤٨٣٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢١٥١١، ٢١٥٦٣)، والترمذي برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه برقم (٣٩٧٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٩).

يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن للجنة أبواباً فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة**»، إلى آخر تلك الأبواب.

فقال أبو بكر؛ وهو بجانب الرسول، عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله، أيُدعى أحد من تلك الأبواب الثمانية؟ انظر إلى الهمَّة العالية، انظر إلى طلب ما عند الله عز وجل، ولذلك فالهمة ليست بالأجسام، وليست بالمناصب، وليست بالأموال، ولكنها بالقلوب.. فهي همَّة تمر مرَّ السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فيتبسم ﷺ إعجاباً من هذا الرجل العظيم، الذي يريد أن يُدعى من الأبواب الثمانية، ويريد أن يكون من المصلين، ومن الذاكرين، ومن المتصدقين، ومن الزهّاد، ومن العبَّاد، ومن المجاهدين.

فقال له ﷺ: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**»(١).

أُثر عنه أنه دخل في مزرعة رجل من الأنصار، وهو خليفة يتنزه مع الناس، رضي الله عنه وأرضاه، مع الصحابة، فلما رأى مزارع الأنصار، رأى طائراً يطير من نخلة إلى نخلة، ومن شجرة إلى شجرة، فجلس يبكي، رضي الله عنه وأرضاه، وكان رجلاً حزيناً، رقيق القلب، نادماً لما في قلبه من إيمان، ومن مخافة.

فقال له الصحابة: يا خليفة رسول الله، ما لك؟

قال أبكي لهذا الطائر، يطير من شجرة إلى شجرة، ويرد الماء ويرعى الشجر، ثم يموت، لا حساب ولا عذاب، ليتني كُنت طائراً.

فبكى الصحابة، رضوان الله عليهم وأرضاهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٨٩٧، ٣٦٦٦)، ومسلم برقم (١٠٢٧)، وأحمد برقم (٧٥٧٧)، وغيرهم.

إن لـم يـكـن هـذا وفـاء صـادق ... فـالـنـاس في الـدنـيـا بـغـيـر شـعـور
رحـمـاك ربـي هـل بـغـيـر وجـوهـنـا ... عُـرف السجود في بيتك المعمور

أي جيل هذا الجيل؟

وأي طراز هذا الطراز الذي رباه محمد ﷺ؟

فمن أراد تقوى الله، فليدرس حياة هؤلاء، فإن الذي لا يعرف حياتهم، أو لا يدرس ما قالوه، وما سطَّروه وما تركوه، سوف يبقى في جهل، وسوف يبقى في عميَّة؛ لأنهم خلفاء رسول الله ﷺ، وأعرف الناس بالإسلام.

ولذلك أُثر عن ابن عباس، رضي الله عنه، في اللسان أنه وقف على الصفا، وأخذ يبكي، ويمسك بلسان نفسه، ويقول: يا لسان، قل خيراً تغنم، أو اسكت عن شرٍّ تسلم.

فالذي أوصي نفسي وإياكم به هو تقوى الله في اللسان، وهو أعظم ما يُتّقى.

فلا نتكلم إلا بخير.

قال أحد التابعين: جلسنا مع عطاء بن رباح ثلاثين سنة في الحرم فما كان يتكلم إلا بذكر الله، أو بآيات الله، أو بأمر بمعروف، أو بنهي عن منكر، أو بحاجة لا بدَّ منها.

فقلنا له في ذلك.

فقال: ما لكم؟ أتنسون أن عليكم من يحفظ أنفاسكم ومن يسجِّل كلماتكم ويحاسبكم به أمام الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [قٓ: ١٨].

فالله الله في حفظ اللسان.

تحفظ اللسان من اللعن، ومن البذاء، ومن الفُحش، ومن الإسراف في المزاح الذي لا يرضي الله عز وجل، ومن كثرة اللغو بغير ذكر الله عز وجل، ومن الغيبة، ومن النميمة، ومن الاستهتار، والاستهزاء خاصة بالأخيار، وبالعلماء، وبطلبة العلم، وبالدعاة، فإن هذا هو النفاق الظاهر الذي لا نفاق بعده.

• تقوى الله في المطعم:

وتقوى الله كذلك في المطعم. قال سعد، رضي الله عنه: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة؟

قال: «**يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»[1].

ولذلك ذكر ﷺ في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم الطويل: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء ومطعمه حرام، وملبسه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يستجاب له**»؟

كيف يستجاب لمن مطعمه حرام؟ كيف تُقبل صلاته وصيامه، وحجه وعمرته، وذكره وتلاوته للقرآن، وقد أكل الربا، ولبس من الربا وتغذى بالربا، واشترى سيارته، وبنى بيته بالربا، وربَّى أطفاله بالربا؟

أي عبادة هذه؟ والرسول ﷺ يقول: «**لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال هم في الإثم سواء**»[2].

ولذلك أجاب الله دعوته ﷺ، فاستجاب لدعوة سعد رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (٦٤٩٥)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/٢٩١).
(٢) سبق تخريجه.

ومن ذلك أن أهل الكوفة اشتكوه إلى عمر، رضي الله عنه، وكان خليفةً فقالوا: لا يحسن أن يصلي بنا.

فيقول سعد متعجباً مندهشاً من هذا الأمر: يا عجباً لبني أسد يعيِّروني بالصلاة، وأنا أدخلتهم في الإسلام بسيفي هذا!

وصدق رضي الله عنه وأرضاه، فإنه هو وأمثاله من دعاة الحق الذين أدخل الله بهم كثيراً من الأمم في الإسلام.

فلما وصلت الشكوى إلى عمر، أرسل بعض الصحابة يستقصون الحقائق في العراق، فمروا بمساجد الكوفة مسجداً مسجداً، كلما سألوهم عن سعد، أثنوا عليه خيراً، ودعوا له بالخير، إلا مسجداً واحداً قام رجل منهم، فقال: أما إن سألتمونا عن سعد، فوالله إنه لا يعدل في القضية، ولا يحكم بالسوية، ولا يسير مع السرية.

فقام سعد، وقال: اللهم إن كان هذا الرجل قام كذباً ورياءً وسمعة فأطل عمره، وأدم فقره، وعَرّضه للفتن.

فاستجاب الله دعوة الصادق، سعد رضي الله عنه، لما علم صدقه وإخلاصه، وإنابته لله سبحانه وتعالى.

يقول أحد الرواة: والله لقد رأيت هذا الرجل بعيني، وقد طال عمره، حتى أصبح شيخاً كبيراً، سقط حاجباه من الهرم على عينيه، وأصبح يتعرَّض للجواري في سكك الكوفة يغمزهن، ويقول: شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد.

فتقوى الله عز وجل تكون في المطعم الحلال، بأن يتقي الله الإنسانُ في ما يُدخل بطنه، فلا يدخل بطنه إلاّ كل حلال طيب، ليقبل الله سبحانه وتعالى عنه أحسن ما يعمل، ويتجاوز عن سيئاته في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

• تقوى الله في السمع والبصر:

وتقوى الله عز وجل تكون في السمع والبصر، ولذلك يقول الإمام الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائباً لقوم فقل يا عين للناس أعين

• أمور تعين على التقوى:

والأمور التي تحصل بها التقوى، قد تُجمع في خمسة:

الأمر الأول: مراقبة الله عز وجل في السر والعلن، فاجعل من الله رقيباً عليك في سرِّك وعلانيتك، فإنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية.

هو معك أينما كنت، فهو مع الكافر والفاجر، معية إحاطة، وإدراك، ورصد.

وهو مع المؤمن معية نصر، وتأييد، وحفظ.

ولذلك اتق الله الذي هو معك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. فاجعل منه رقيباً سبحانه وتعالى واعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، وهذا تعريف الإحسان الذي عرَّفه به محمد ﷺ في حديث جبريل الطويل.

واعلم، أن الرقابة من أعظم ما يمكن أن يحقق التقوى في القلب. أن تراقب الله خاصة في السر، لأن كثيراً من الناس يراقبون الله في العلانية، وإذا خلوا في السر هتكوا حُرمات الله، ولعبوا بحدود الله، فويلهم من الله. ولذلك في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين أقوام يوم القيامة بحسنات كجبال تهامة يجعلها الله هباءً منثوراً»**.

قالوا: يا رسول الله أليسوا بمسلمين هؤلاء؟

قال: «**بلى مسلمون يصلون كما تصلون، ويصومون كما تصومون، ولهم حظ في الليل، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»(١).

فهؤلاء يجعل الله أعمالهم يوم القيامة هباءً منثوراً، ويوردهم موارد الضالين، نعوذ بالله من ذلك.

كان ابن مسعود، رضي الله عنه، يقول: الله الله في السرائر.

ويقول الأندلسي يوصي ابنه:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحيي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

الأمر الثاني: ذكر الله دائماً وأبداً ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] الآية.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فذكر الله أكبر من كل شيء وهو أعظم ما يحصّله العبد.

فاللّهَ الله في ذكر الله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٤٢٤٥)، والطبراني في الصغير برقم (٦٦٢)، وفي الأوسط برقم (٤٦٣٢)، وفي مسند الشاميين برقم (٦٨٠)، وانظر: مصباح الزجاجة (٢٤٦/٤)، وصحيح الجامع برقم (٥٠٢٨)، والسلسلة الصحيحة برقم (٥٠٥).

سُئل ابن تيمية شيخ الإسلام رحمة الله عليه عن أعظم وصية وأعظم عمل بعد الفرائض.

قال: أما أعظم وصية فلا أعظم من وصية الله للأولين والآخرين وهي تقوى الله، وهي التي أوصى بها رسول الله ﷺ جيوشه ورسله عندما كان يرسلهم، كمعاذ حينما قال له الرسول ﷺ كما في الترمذي:

«اتقِ الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن»[1].

وأما أعظم عمل فلا أعلم بعد الفرائض من ذكر الله عز وجل.

فليكن ذكر الله وردك أخي المسلم دائماً وأبداً.

اذكر الله جالساً، وقائماً، وعلى جنبك، وفي سفرك، وفي حلِّك، وفي ترحالك، وفي ليلك وفي نهارك، ليتولاك الله، ولِيشرح صدرك للإسلام، ويحبب لك الطاعة، ويكفِّر عنك سيئاتك، وليجتبيك سبحانه وتعالى، وليلهمك رشدك، وليبصرك بحقائق هذا الدين، وليجعلك من الأخيار الأبرار.

فعليك بذكر الله دائماً وأبداً.

الأمر الثالث: تدبَّر كتاب الله عز وجل.

فأوصيكم، وأوصي كل مسلم، وأوصي نفسي، أولاً بتدبر كتاب الله عز وجل، هذا الكتاب الخالد الذي أنزله الله شفاء، وهداية، ونوراً.

أن نتدبره، وأن نجعل لنا ورداً يومياً نقرأه، وحزباً لا يمكن أن نغادره.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٠٨٤٧، ٢٠٨٩٤)، والترمذي برقم (١٩٨٧)، والدارمي برقم (٢٧٩١)، وانظر: المشكاة برقم (٥٠٨٣).

قال عزَّ من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ما لهم لا يتدبرون القرآن؟ ما لهم لا يتفهمون حقائق القرآن؟ ليعرفوا الحق من الباطل والرشد من الغي والضلال من الهداية.

وقال عزَّ من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

فأوصي نفسي وإياكم بتدبر كتاب الله، ثم قراءة السنَّة المطهرة، والسيرة الخالدة، سيرة محمد ﷺ، وكتب السنة كلها سيرة.

ومن أحسن ما كتب في السيرة كتاب (زاد المعاد) لابن القيم رحمه الله فليُتدبر.

الأمر الرابع: كثرة الدعاء.

فعلينا أن نضرع لله بالدعاء، يقول عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

فالدعاء دائماً وأبداً.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

قيل لعمر، رضي الله عنه وأرضاه: ما هي النجاة؟

قال: ما أعلم بعد رحمة الله كالدعاء.

فالدعاء هو النجاة بإذن الله، خاصة إذا صاحب الأوقات الفاضلة كأدبار الصلوات، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة، وفي آخر الليل، وآخر ساعة من الجمعة، ويوم عرفة، والأيام الفاضلة المشهودة.

الأمر الخامس: صحبة الصالحين، وزيارتهم، ومحبتهم، والاستئناس برؤياهم.

كيف يتقي الله من يُجالس الفَجَرة؟.

كيف يتقي الله من يحب المفسدين في الأرض؟

كيف يتقي الله من وقته ضائع مع كل مُعْرِض عن الله؟

فاللّهَ اللّهَ في محبة الصالحين، وفي الاستفادة منهم، والجلوس معهم، وفي طلب دعائهم، فإنه من أعظم العون في الدنيا والآخرة على التقوى.

أسأل الله تعالى لي ولكم أن يوفقنا للتقوى، والعمل الصالح، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.





الأعمال بالخواتيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسَلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فموضوع هذا الدرس (الأعمال بالخواتيم).

والأصل في ذلك: قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠، ٣٢].

وقال جلَّ اسمه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٣].

قال أبو الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه، كما روى البخاري ذلك عنه في كتاب الرقاق: ارتحلت الدنيا مُدْبِرة، وارتحلت الآخرة مُقبلة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء

الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

وقال الحسن البصري، رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لبٍّ فرحاً.

وقال الناظم:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الموت نبنيها
أين الملوك التي كانت مسلَّطة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

بيننا وبين الناس، وبين المظلوم والظالم، وبين المؤمن والفاجر، وبين القوي والضعيف، وبين الغنيَ والفقير، ساعة الموت.

قال أحد العلماء: ساعة الموت يُسلم فيها الكافر، ويذعن فيها الفاجر، ويعود فيها المتمرد، ويضعف فيها القوي، ويستسلم فيها الجبَّار.

وساعة الموت، ينطرح فيها الإنسان، فيبحث عن عمل، فلا يجد إلا ما قدم، قال ﷺ في الصحيحين: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢)، ومسلم برقم (٢٦٤٣)، وأحمد برقم (٣٥٤٣، ٣٦١٧)، وأبو داود برقم (٤٧٠٨)، وغيرهم.

وهذا الحديث فيه سؤال: كيف يعمل العامل بعمل أهل الجنة، يصلي المصلي، ويزكي المزكي، ويصوم الصائم، ويحج الحاج.

فكيف يعمل العامل، ويتقي المتقي، ويجتهد المجتهد، فإذا بلغت الروح الحلقوم سبق عليه الكتاب، وخسر عمله؟

وكيف يفجُر الفاجر، ويظلم الظالم، وينتهك الأعراض، ويلعب بالدماء، ويضيِّع الصلوات، ويلعب بالمحرمات، فإذا وصل إلى السكرة أُدخل الجنة؟

أليس هذا بإشكال؟

لكن الله يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

والجواب أن يقال: معنى الحديث: أنه يعمل بعمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، وإلا ففي باطنه: حيَّات، وعقارب، وظلم أسود.

ويعمل بعمل أهل النار، فيما يظهر للناس، وإلا ففي قلبه: خير كثير، وله خفية من عمل صالح، يكشفها الله في سكرة الموت.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا يُرى إذا بلغت الحلقوم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

فالمعنى: أن بعض الناس أظهر للناس جميلاً، وأظهر لله الخبيث، فلما حَصْحَصَ الحق، وأتت ساعة الصفر، ظهر القبح.

وكان بعضهم يُقدم لهم المصحف في سكرات الموت، ويقال: قل لا إله إلا الله، هذا المصحف.

قال: هو يكفر بلا إلٰه إلا الله!! ويكفر بالقرآن!! لأنه عاش منافقاً مرائياً ما عرف الله تعالى.

وآخر صالح، ولكن ظن الناس أنه سيء، لكنه تاب، وعمل خيراً، فالله لم يخذله، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] قال أهل العلم أي: وقت سكرات الموت.

وقد تنزلت الملائكة على كثير من هذه الأمة، وأولهم، وخيرهم، وسيدهم: رسول الله ﷺ، فإن ملك الموت قبض روحه، وكان يقول: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**»[1]، وذهب إلى الله سعيداً، وكان أحسن أيامه يوم لقاء الله سبحانه وتعالى.

وحضرت الوفاة عمر بن عبدالعزيز، الخليفة الراشد، فحضرت الملائكة قبل أن تقطف روحه، فقال لامرأته فاطمة بنت الخليفة، وأخت الخلفاء: اخرجي، فإني أرى نفراً ليسوا بإنس ولا جن.

فخرجت، وأغلقت عليه الباب، وتوفي.

وكان ابن المبارك في سكرات الموت، يبتسم، ويقول: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ [الصافات: ٦١].

فالملائكة قبل الموت، تبشِّر المؤمن، وتقول له: لا تخف ولا تحزن، لا تخف ممن قبلك، ولا تحزن على ما قدمت، فالله معك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٧٠).

وأما المنافق، والفاجر، فتزلزله الملائكة زلزلة، وتقول له: هذا يومك يا عدو الله، وهذا أسوأ يوم لك يوم لقاء الله، أو كما ورد.

يقول ﷺ كما في الحديث: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[1].

وفي رواية عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله: إنا نكره الموت.. من الذي يحب الموت، بل إذا غضب الإنسان على الإنسان دعا عليه بالموت.

قال: **«ليس ذاك، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشنجت الأصابع، فعند ذلك، من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[2].

قال الشيخ حافظ بن أحمد:

ومَنْ لقاء الله قد أحبَّ كان له الله أشد حبّا
وعكسه الكاره فالله سل رحمته وفضله ولا تتكل

وفي سوء الخاتمة وردت أحاديث، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه وأرضاه: أن الصحابة لما حضروا غزوة من الغزوات جاء رجل من أهل المدينة اسمه (قزمان) وهو من الموالي، شجاع بتَّار، فقاتل الكفار قتالاً مريراً، وكان يدافع مع المؤمنين.

فلما رآه ﷺ قال: **«هو من أهل النار»**، فتعجب الصحابة.. وأثناء المعركة أصابه جرح، آلمه، فاتكأ على سيفه، حتى خرج سيفه من ظهره.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٧)، ومسلم برقم (٢٦٨٣)، وأحمد برقم (٢٢١٨٨، ٢٢٢٣٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٥)، وأحمد برقم (٨٣٥١).

فقالوا: يا رسول الله، هنيئاً له الشهادة (وهم لا يعلمون بصنيعه).

قال ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده إنه من أهل النار»**.

فسألوا: ما له؟

فقالوا: جزع من الموت، وجزع من الجراح، وما صبر فوقع على سيفه، حتى خرج من ظهره[1].

وحضر آخر غزوة لرسول الله ﷺ، فلما استشهد فيما يظهر للناس قالوا: هنيئاً له الجنة فلان شهيد.

قال ﷺ: **«كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها»**[2].

هذه بعض أحاديث الخاتمة لبعض الناس.

قال ابن بطال المالكي شارح البخاري: في تغييب الخاتمة عن العبد: حكمة بالغة، وتدبير لطيف، بأنه لو علم أنه كان ناجياً أعجب، وكسل عن العمل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فغُيّب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء.

معنى الكلام: أنَّ من سِتر الله، ومن عفو الله، ومن رحمة الله، أنه حجب خواتيم الأعمال عن الناس، فلو أخبرك الله عز وجل بحسن الخاتمة أصابك العُجب، وكسلت عن العبادة، واتكلت على الخاتمة، ولو أخبرك بسوء الخاتمة لحملك ذلك على العتو والتمرُّد.

لأن بعض الناس إذا قنط من رحمة الله، وأُبعد عن الله، ازداد عتوّاً وتمرداً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٨، ٤٢٠٢، ٤٢٠٧)، ومسلم برقم (١١٢)، وأحمد برقم (٢٢٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١١٤)، وأحمد برقم (٢٠٣، ٣٣٠)، والترمذي برقم (١٥٧٤)، والدارمي برقم (٢٤٨٩).

فالخواتيم بيد الله سبحانه وتعالى، ولا ندري إلى ما يؤول إليه العبد.

قال رجل لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً، فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا.

فقال: أمنُك على نفسك أشد من ذنبه.

قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، فلعله أن يكون هو من الخاسرين.

ولذلك تجد بعض الطائعين، فيما يظهر للناس، هم أحقر ربما عند الله من بعض العصاة، وليس هذا تشجيعاً على المعصية، حاشا وكلا، لكن بعضهم إذا أعجبته نفسه، وطاعته، تجبَّر على الله حتى بعضهم يصبح إلٰهاً مع الله، فتجد نفسه كنفس نمرود، وهو يصوم النهار، ويقوم الليل.

فإذا ذُكرت له المعاصي، قال: أعوذ بالله، سلَّمنا الله من فعلهم، أعوذ بالله من هذه الأفعال الوخيمة.

ثم يقول أحدهم: والله، إني منذ أن ولدتني أمي ما عصيت الله طرفة عين!

ويقول الثاني: ما أظن أنني كذبت منذ أن احتلمت!

ويقول الثالث: منذ أن عقلت رشدي ما سقطت، فيما سقط فيه هؤلاء!

وهكذا من كلمات التزكية، والإعجاب، واحتقار الآخرين.

فالأعمال بالخواتيم، بل قال بعضهم: ربما أصرَّ العبد على ذنب، فمات عليه.

وبعض الناس يصر على المعصية، فتهدم مستقبله، وعمره كله، والله المستعان.

يقول سفيان لبعض تلاميذه: لماذا تضحك؟ هل علمت علم الله فيك؟ هل تدري ما هي خاتمتك؟

والضحك عموماً وارد في محله، فالله يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾ [النجم: ٤٣] وضحك رسولنا ﷺ، ولكنه الخوف من سوء الخاتمة.

قال بعض أهل العلم: أتى ملك الموت إبراهيم عليه السلام، ليقبض روحه، فجلس أمامه.

قال: ماذا تريد؟

قال: أقبض روحك.

قال: وهل خليل يقْبض روح خليله، يعني: الله خليل إبراهيم وإبراهيم خليل الله.. وهل الخليل يقبض روح خليله؟

فقال الملك: وهل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله!

فسكت إبراهيم، عليه السلام، فقُبضت روحه.

وروى غيرهم: أن معاذاً رضي الله عنه وأرضاه، أتته سكرات الموت، وهو في فلسطين، وكان عمره آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة.

هذا عمر معاذ بن جبل.. كل هذا التاريخ، والعلم، والزهد، والجهاد في ثلاثين سنة، فليست المسألة بالأعمار، فإن بعض الناس يطول عمره، ويسوء عمله، وبعضهم يطول عمره، ويحسن عمله، **«وخيركم من طال عمره وحسن عمله»**[١].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٩٩٠٢، ١٩٩٣٠، ١٩٩٦٨)، والترمذي برقم (٢٣٣٠)، والدارمي برقم (٢٧٤٢).

قال معاذ لغلامه: انظر هل طلع الفجر؟

قال: لا.

فمكث قليلاً، وقال: انظر هل طلع الفجر؟

قال: نعم.

قال: مرحباً بالموت حبيباً جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أني لم أحب الحياة لغرس الأشجار، ولا لجري الأنهار، ولا لعمارة الدور، ولا لرفع القصور، ولكن كنت أحب الحياة لثلاث: لمزاحمة العلماء بالركب في حِلَق الذكر، ولصيام الهواجر، ولتعفير الوجه لك في التراب.

هذه الثلاث التي جعلت معاذاً، رضي الله عنه، يمكث في الحياة، ويحب الحياة.

وندم كثير من الناس في سكرات الموت، ولو أنهم من الموحدين في الجملة، ولا نحكم على أحد من أهل القبلة بالجنة أو النار، فإن العلم عند الله عز وجل.

الوليد بن عبدالملك أتته السكرات، وكان له أعمال، الله أعلم بها، فهو الذي وسع المسجد النبوي، ووسع بيت المقدس، وبنى مسجد بني أمية في دمشق، ولكن ليس المقصد: التوسع، وليس المقصد: عمارة المساجد، ولكن المقصد: وجه الله، وإرادة ما عنده سبحانه وتعالى بالعمل والإخلاص له.

فلما حضرته سكرات الموت، تلبَّط، وقال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] يقول: أين المال؟ أين السلطان؟

وأما سليمان بن عبدالملك: أخوه، الذي تولى الخلافة بعده، لما حضرته الوفاة ندم؛ لأن أبناءه صغار، فلا يستطيعون الخلافة بعده!!

فأخذ ينشد في سكرات الموت، ويقول:

إن بـنـيّ فِـتـيـة صـغـار أفـلـح مـن كـان لـه كـبـار

فقال عمر بن عبدالعزيز: لا، إنما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

قال الشيخ الحكمي:

لا تـحـتـقـرْ شـيـئاً مـن الـمـآثـم وإنـمـا الأعـمـال بـالـخـواتـم

قال حاتم الأهتم أحد الصالحين: من خلا قلبه من ذكر أربعة فهو مغتر بالله العظيم.

الأول: الميثاق.. فإن يوم أخذ الله الميثاق، أخذ قبضة من الناس فقال: هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي.

فتصوَّر في أي القبضتين أنت؟

الثاني: الظلمات الثلاث.. فإن الله يكتب على العبد رزقه، وأجله، وشقي هو أم سعيد وهو في بطن أمه.

والثالث: هول المطلع.. عندما نخرج من القبور.

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً.

هذه الأربعة أذهلت الصالحين وجعلتهم يتحرون لقاء الله عز وجل، ويبكون على أعمارهم، ويندمون على ما فرَّطوا.

وإذا رأيت العبد يسرف في الخطايا، وهو يضحك، فاعلم أن عاقبته وخيمة، إن لم يتداركه الله برحمته.

فمن علامات العصاة: أنهم يسيئون، ويضحكون، حتى تجد بعضهم يظلم، ويفتك، ويخون، ويعتدي، وتجده سعيداً، ضاحكاً، فارحاً بعمله ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

تجد بعضهم: ما يظن أنه أخطأ، ولا يظن أنه أساء، بل هو في بحبوحة من العيش، يضحك من العافية، وقد قدَّم من الصفحات السود أمامه ما يندم عليها بعد حين، عندما يقابل الديَّان.

أمـا والله إن الـظـلـم شـؤم ... ومـا زال الـمـسـيء هـو الـظـلـوم
إلـى ديـان يـوم الـحـشـر نـمـضـي ... وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـوم

أحد الوزراء العباسيين، أتاه فقير، فلطمه على وجهه لطمة، ثم ندم، فقال: خذ ما شئت.

قال: والله لا آخذ، ولكني أحاكمك إلى من يأخذ منك ما شئت وما لا شئت.. أو كما قال.

فالحكم لله إذا برز الله للناس ليحاكمهم قال: لمن الملك اليوم؟

فلا يجيبه ملَك مقرَّب ولا نبي مُرسل.

فيُجب نفسه بنفسه ويقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

• علامات حسن الخاتمة وسوئها:

ما هي علامات حسن الخاتمة؟ نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة.

هي خمس علامات:

الأولى: الصدق مع الله.

الثانية: تجديد التوبة.

الثالثة: المسارعة إلى الصالحات.

الرابعة: اتباع السنة.

الخامسة: تذكر الآخرة والاستعداد لها.

وعلامات سوء الخاتمة خمس:

الأولى: النفاق والمراءاة والسمعة.

الثانية: الاغترار بالدنيا والانغماس فيها.

الثالثة: الأمن من مكر الله عز وجل.

الرابعة: الغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

الخامسة: التسويف بالتوبة.

● علامات حسن الخاتمة:

أما علامات حسن الخاتمة.

فأولها: الصدق مع الله عز وجل، دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، قال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله ﷺ في الصحيح: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، ولو مات على فراشه**»[١]، إلى غير ذلك من الأدلة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٩)، وأبو داود برقم (١٥٢٠)، والترمذي برقم (١٦٥٣)، والنسائي برقم (٣١٦٢)، وغيرهم.

وبضدِّها من كَذَبَ مع الله، لا يبلغه الله ما تمنَّى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ولا يهدي سبحانه وتعالى من خان عهده، ولا يهدي سبحانه وتعالى من لا يريد الهداية.

الصدق مع الله له ثلاثة أركان:

١ ـ عزم النية وعقدها: بحب وطاعة الله، وأن يكون قصده بالعمل وجه الله، وأن يحب الله ورسوله حبّاً من داخله، وأن يصدق مع الله ومع الرسول ﷺ.

٢ ـ أن يصدق جوارحه في طاعة الله.

٣ ـ أن يكون وقته معموراً بطاعة الله، فمن فعل ذلك فقد صدق مع الله.

وبعضهم جعل الصدق مع الله علامات يقول: أن لا تجعل بينك وبين الله الناس، فإن بعض الناس يجعل بينه وبين الله الناس، فيقول: رضى الناس أحب من رضى الله، وسخط الناس أهم عندهم من سخط الله.

ولذلك تجده يراعي شعور الناس، ويراعي رضى الناس، ويتلطف مع الناس.

يقول الأول لبشر مثله:

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب

وقد صحَّ عنه ﷺ: «**من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه**

وأسخط عليه الناس، ومن أسخط الناس برضا الله رضي الله عليه وأرضى عليه الناس»[١].

وقال بعضهم: الصدق مع الله أن يستوي عندك المدح والقدح.

فإذا رضي الله فلا يهمك أحد.

وقال بعضهم: ألا تزيد أمام الناس، ولا تنقص مع نفسك.

فإن بعض الناس يتشجَّع في الأعمال إذا رأى الناس، وإذا سافر معهم قام الليل، وصلَّى بالضحوات، وقرأ في القرآن، وإذا أصبح في بيته لم يفعل معشار ذلك.

الثانية: تجديد التوبة، فكل صباح يجدد التوبة، لأن الذنوب كثيرة لكن العبد يجدد التوبة دائماً ويكثر من الاستغفار والندم.

أما الفريق الآخر، فتجد أحدهم، لا يلتفت إلى التوبة، وهو مُصِرٌّ على الذنوب والخطايا، وتجد بعضهم، لا يحب أن تذكِّره بالتوبة، والعمل الصالح، ويقول: دعنا نتمتع، اتركنا نأخذ راحتنا، لكن إذا فاجأه الموت أصبح مثل فرعون، فقال: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨] فما نفعه ذلك.

أعلى الله يكذب؟ أعلى الله يخادع؟

الثالثة: المسارعة إلى الصالحات، فتغنم عمرك، وتنظر هل قدمت صالحاً في الحياة؟ وما هو اليوم الذي صرفته في طاعة الله؟

وتكثر من نافلة الصلاة، وقراءة القرآن والذكر، وحضور مجالس العلم، وحب الصالحين، والمدافعة عن أولياء الله عز وجل، والانتقام إذا رأيت حدود الله وأوامره تنتهك، والغيرة من أجل مبادىء الله عز وجل.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٤)، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (٥٠٠)، وابن حبان برقم (٢٧٧)، وانظر: المشكاة برقم (٥١٣٠).

الرابعة: اتباع السنّة، سنّة محمد ﷺ، ومن لم يتّبع محمداً ﷺ في عبادته، وأفعاله، وسلوكه ففي قلبه شك، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فبعضهم يترك السنن، وهو يدَّعي حب الله، وحب رسوله ﷺ، إذاً لماذا تركتها؟ أليس في حبك قدح؟ سل نفسك، فأنت بصير عليها ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

وبعضهم، يجعل ذكر الرسول ثانوياً، فهو فردٌ من الناس، ولا يفرح بذكره، بل تجد سَقَطَة الخواجات عندهم من أشرف وأعظم الناس!

ولو أحبوه ﷺ لظهر حبهم له في أعمالهم.

من الذي جعل الإمام أحمد في مرض الموت، يجلس، فيخلّل لحيته بأصابعه؟

إنه حب السنة.

قيل لأحد التابعين: من هم أهل السنة؟

قال: من ليس لهم اسم إلا أهل السنة.

ولذلك كان الإمام أحمد من تقديره للسنة، وحبه لها، لا يقوم لأبناء الخلفاء في مجلسه، ولا يأبه بهم، ولكنه يثب عندما يرى واحداً من أهل السنة.

دخل عليه مرة من المرّات إبراهيم بن سعد، أحد أحفاد عبدالرحمٰن بن عوف، فوثب من مجلسه حتى عانقه، فلما سُئل قال: ألا أقوم لابن أحد المبشرين بالجنة؟

ودخل عليه رجل كبير، وهو في مجلس الحديث، وكان هذا

الشيخ قد صبغ لحيته، وغيَّرها بالحِنَّاء، فقام الإمام وعانقه، وقال: ما قمت إلا حباً للسنة.

وليست العبرة بأن يعمل بالسنة النبوية، وهو مفرِّط بالفرائض.

فهذا جهل.

تجد بعض الناس أموالهم في البنوك الربوية، ويأتيك يقول: هل يقص الشارب أو يحلقه!!

سبحان الله!

تسأل عن الشارب يحلق أم يقص، وأموالك تشرب من ماء الربا في البنوك.

وقس على ذلك.

فنسأل الله أن يثبتنا على سنته.

الخامسة: تذكر الآخرة والاستعداد لها، فدائماً: الصالح يذكر الآخرة.

وكثير من الصالحين يقول: لو فات ذكر الموت من قلبي ساعة فسد قلبي.

وكان بعضهم أخذ له كفناً، ووضعه أمامه ينظر إليه دائماً.

وميمون بن مهران حفر لنفسه قبراً في (الحوش)، فكان إذا أراد أن ينام نزل، وقرأ شيئاً من القرآن، ثم خرج، وقال: هاه يا ميمون، قد خرجت فاعمل صالحاً.

ونحن نقول: لا تحفروا قبوراً في بيوتكم، ولكن نطالب أنفسنا، وإياكم بالمحافظة على الصلوات الخمس، وتقوى الله، ومواصلة الخير، والاهتمام بشرعه سبحانه وتعالى، وتذكر الآخرة، وذكر الله سبحانه.

أما أهل الغفلة، فإنهم يعمهون، ولا يتذكرون إلا وقت السكرات.

إذا قرأ القارىء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] لم يرفعوا رأساً لما يقول، وإنما يهزون رؤوسهم إعجاباً بصوته! وليس المقصود من القرآن: الصوت فقط، وإنما العمل والامتثال.

ولذلك كان الصحابة لا يجاوزون بضع آيات منه حتى يعملوا بها.

• علامات سوء الخاتمة:

الأولى: النفاق والرياء، والعياذ بالله، وأنتم تعلمون أن المنافق مخذول في الدنيا والآخرة، وهو في الدرك الأسفل من النار.

وهناك نفاقان: النفاق الاعتقادي، والعملي.

فالاعتقادي صاحبه مخلَّد في النار لا يخرج منها.

والعملي ذنوب وخطايا من الكبائر يحاسَب عليها.

«ومن راءَى راءَى الله به، ومن سمّع سمّع الله به»(١). يعني: من أحبَّ الرياء والسمعة والرضى والشهرة والظهور فضحه الله وأظهر مخبوء نفسه، ونعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.

الثانية: الاغترار بالدنيا والانغماس فيها.

لقد أصبحت علاقة الناس اليوم للدنيا، وحبهم للدنيا، وبُغضهم للدنيا، وزيارتهم للدنيا، إلا من رحم ربك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩)، ومسلم برقم (٢٩٨٧)، وأحمد برقم (١٨٣٣٠) عن جندب بن عبدالله، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن يوم يصبح العبد إلى أن يمسي، وهو يتحدَّث عن الخبز، وعن الثلاجة، وعن السيارة، وعن الأولاد، وعن الوظيفة، وعن المزرعة، وعن البستان، وعن العمار.

لكن لو سألنا وقلنا: ماذا قدَّمت للإسلام في هذا اليوم؟

لما وجد جواباً.

أين أنت يا هذا، والإسلام يُصاب في كل مكان؟

أين أنت عن الدعوة، وعن البذل، وعن النصرة؟

ذهب أحد الدعاة إلى الله من الهند إلى أمريكا ليتكلَّم في الشباب العربي المسلم، وهو لا يجيد العربية جيداً.

فقال: أنا جئت من الهند لما سمعت أن حديقة محمد ﷺ تحترق.

(أنا جئت في مياه أنا يطفىء) يعني: جئت لأطفىء حديقتكم التي احترقت، والتي أحرقتموها أنتم العرب.

فنسأل أنفسنا: هل جُرحنا في سبيل الله؟

هل بكينا من خشية الله؟

هل دفعنا أموالنا في سبيل الله؟ أم أننا ألهتنا هذه الدنيا الدنيَّة عن أمور الآخرة، واهتماماتها؟ أسأل الله لي ولكم اليقظة من هذه الغفلة، والاستعداد للآخرة بأمور الخير، واستغلال منافذه.

فمنافذ الخير كثيرة: منها: أن تتصدَّق بمالك، فتدعم الدعوة والعلم، ومنها: أن تهدي الشريط الإسلامي، ومنها: نفع المسلمين، ومنها ومنها....

الثالثة: الأمن من مكر الله، عز وجل، حتى كأن بعضهم آتاهم الله ميثاقاً أن لا يعذبهم.

وبعضهم إذا نصحته، قال: رحمة الله واسعة، والله ما علمنا في أنفسنا إلا خيراً!

ويأتون بأحاديث موضوعة، تشهد لحالهم.. يقولون أن الرسول ﷺ ضمن الله له أن يدخل أمته كلها الجنة فأنا منهم.

ومن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فاشهدي يا جبال، ويا حجر، ويا مدر، ويا شجر، أنه لا إله إلا الله!

ولم يعلم هذا أن مثل هذه الأحاديث، مضبوطة بضوابط، ولها شروط، لا بد أن يأتي بها، وإلا فإن الكلام وحده لا يكفي.

الرابعة: الغفلة عن ذكر الله عز وجل، فأثقل ما يمر بالغافلين ذكره سبحانه وتعالى، فلا يكون له حسبان عندهم، بل هو في آخر القائمة.

وإذا أتى أحدهم يقرأ القرآن، أخذ القرآن يوم الجمعة بيده اليسرى، وتصفَّحه تصفحاً، ثم هجره إلى الجمعة الأخرى.

الخامسة: التسويف بالتوبة وتأخيرها، وتأجيلها وعدم الإسراع بها، وتصغير الذنوب في العين، والإسراف في الرجاء إلى أن يصبح عقيدة للعبد، ويصبح منهجاً في الحياة.

فدائماً يثني على نفسه، بما لا تستحق، وإذا طولب بالتوبة، قال: سوف أتوب.

وهذا علامة الخذلان، والعياذ بالله، والحرمان.

ولذلك قال بعض الفضلاء: من زرع كلمة (سوف) أنبتت له نبت (ليت)، فأثمرت له (لعلَّ)، وثمرها: (الخيبة والندامة).

والله قال في أعدائه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣] يلهيهم الأمل: أي: يطول بهم الأجل، ويؤخِّرون التوبة، ويسوِّفون بها حتى يقصمهم الله.

وبادر بالتوبة النصوح قبل اضطراب وانتزاع الروح
لا تحتقر شيئاً من المآثم وإنما الأعمال بالخواتم

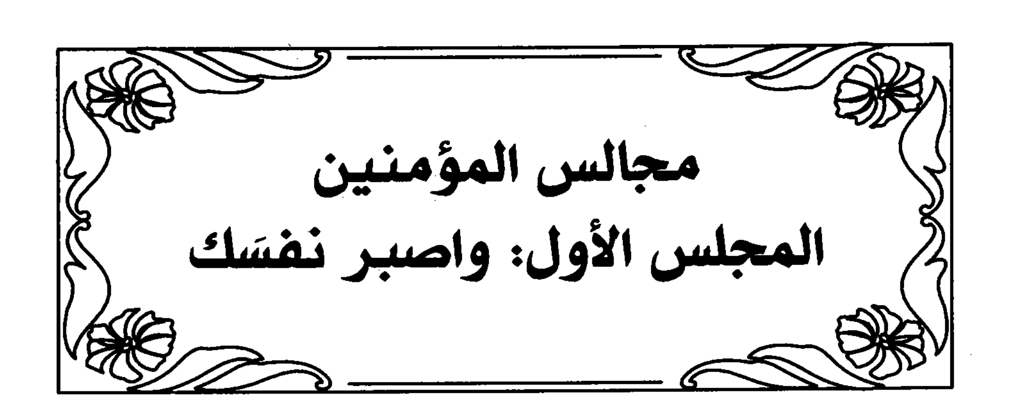
وبعضهم لا يتوب حتى يحضر أجله، فيندم كما روي عن بعض الخلفاء أنه لما حضرت الوفاة بكى وقال: ما كنت أعلم أني أموت شاباً، ولو كنت أظن أني أموت شاباً لتُبت إلى الله.

وهل له عهد أن لا يموت إلا شيخاً؟

فأسأل الله الذي بيده مقادير الأمور، ومفاتيح القلوب، أن يتوب علينا وعليكم، وأن يُلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا، وأن يسدِّدنا وإياكم، وأن يتغمَّدنا وإياكم برحمته.

والله أعلم، وصلَّى الله علىٰ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.





مجالس المؤمنين
المجلس الأول: واصبر نفسَك

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

غذاء القلوب: ذكر علاّم الغيوب، وقد نادى منادي حي على الفلاح، فأجابته الأرواح الصِّحاح.

جلس أهل الشهوات يدنِّسون ألسنتهم بانتهاك الأعراض، والوثوب على الحُرمات، واقتحام أستار المؤمنين، شادوا دورهم، وخرّبوا قبورهم، زخرفوا برودهم، وهدّموا لحودهم.

عندها هبّ أهل الإيمان على بريد التوفيق مجيبين بلال العزم في سحر الأيّام، فأما قلوبهم فمطمئنة بذكر ربهم، وأما ألسنتهم ففي زجل بمدح ربهم، وأما عيونهم فجارية بماء الحبّ، باعوا دماءَهم من الله، فهم ينتظرون الذبح في سبيله، وأرخصوا أنفسهم في خدمته، فكل تعب في مرضاته راحة، وكل سهر في عبادته أنس، وكل جوع لأجله غنيمة.

إذا رأيت خدَّام الدنيا يلوِّحون بالدنانير الملس، ويتهافتون كالذئاب العلس، فاصبر نفسك.

وإذا دعاك الناكثون في السهرات، الغافلون في الخلوات، المتثاقلون عن الطّاعة، المتفلّتون عن صلاة الجماعة، فاصبر نفسك.

إذا سمعت نغمة الوتر، وصولة أهل البطر، وجموح المترفين، واستفزاز المرجفين فاصبر نفسك.

عندنا خير مما عندهم، حياتنا جدٌّ، وحياتهم هزل، ولايتهم في اضطراب، وولايتنا لا تقبلِ العزل، كلما كدنا نرضخ، صاح النذير: واصبر نفسك.

أيها المؤمنون، هل شممتم مسكاً أزكى من أنفاس التائبين؟ هل سمعتم بماء أعذب من دموع النادمين؟ هل رأيتم لباساً أجمل من لباس المحرومين؟ هل رأيتهم زحفاً أقدس من زحف الطائفين؟

يا ساري البرق خذ بالله من خلدي ... دمع المحبة مجتازاً إلى أضمِ
فالعين ساكبة والطرف مكتمل ... من السّهاد وذو الأشواق لم ينمِ

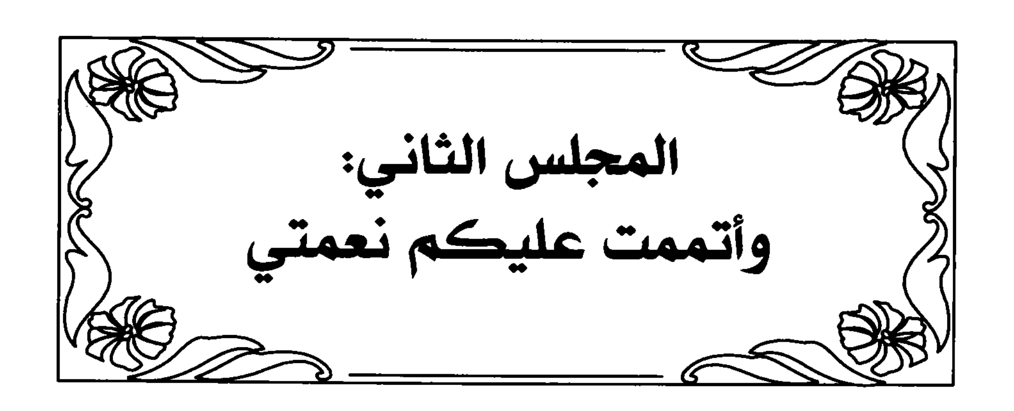
يا مسلماً، هل من ركعتين ودمعتين؟ فالحياة بلا ركوع دمار، والعمر بلا دموع خسار.

خلا رسولنا ﷺ في الغار، فهبطت عليه الأنوار، فأتت من الغيب بشرى النبوة تتنفس في السَحَر كالشذى، وشقّت صمت العالم وأنسام التوفيق تحملها السكينة من دار إلى دار، فاستقامت مكّة على هَدْهَدة أنامل الرسالة، فإذا بشمس الوحي تتهادى من خلف تلال التاريخ، وفي عينيها أسرار عشاق المبادىء وسُمَّار المجد، وفي كف اليتيم شعل من طور سيناء، وفي دمه عقيدة حارة تتحدَّى الطواغيت والجبابرة، وفي ملامحه وعد يقرؤه أتباعه من القراء والآيبين.

شبَّ اليتيم ونجم سعوده يهوي في بادية بني سعد، والملحمة تنادي ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ - ٢]، فأشرقت شمسه، فكل أرض لم تسعد بها فهي شقية، وكل عين لم تشاهدها فهي عمياء، ذلك بأن الله يهدي برسوله من يشاء ويضل من يشاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].





نزلت هذه الكلمة في عرفة، وظن بعضهم أن النعمة في الأسكنة، والدور، والدراهم، والقصور، والموائد الشهيَّة، والمراكب العرطيّة، فأين هذه النعمة؟

فهل هو المقصود ﷺ بقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وبطنه يربَط بالحجر من وهج الجوع، والحصير يؤثر في جنبه، وبيته في قامة الإنسان بُني من لبن الطين، فأين النعمة؟

ألا إنها تلك المبادىء الخالدة التي جاء بها هو، وعاشها في روحه، وضميره، ودمه.

ألا إنها أخلاقه العامرة الزكية، التي سرت في قلوب أتباعه إلى يوم الدِّين.

ألا إن النعمة: ذلك النور الذي حمله إلى المتخبِّطين في الظلام، يخرجهم من الظلمات إلى النور، والوحي الذي تشرَّف بتبليغه للعالم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

لقد بُعث ﷺ بهذه الرسالة الربانية، التي لم يطرق العالم رسالة مثلها، ولم يصدع الكون صوتاً أنبل منه.

بُعث ﷺ، والجزيرة العربية شحيحة الموارد، شاحبة الكنوز، مثقلة الخطا بالتَّبِعات، متعثِّرة في دروب التاريخ.

بُعث ﷺ والجزيرة تحتاج إلى دور للرعاية، وملاجىء للعناية، ومستشفيات لمحاربة أمراض الإنسان، وقلاع عسكرية لحماية الأمّة.

بُعث ﷺ في أمة تأكل الميتة، وتقدِّس الحجر، وتؤمن بالكِهَانة، فكانت مهمَّته أعظم من عمارة دار، أو بناء مدرسة، أو تعمير مستشفى، أو إقامة قلعة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فصاغ العقول بمعدن الفطرة السليمة، وغذّى الأرواح بقوت الوحي، وأيقظ الأنفس من سُبات الغافلين، وأخبر العالم أن هناك عالماً ثانٍ، وحياة أخرى، وميعاداً يقوم فيه الناس لرب العالمين، فيا لخسارة الغافل، كم يُقتل بسكين الهوى، وما علم المسكين، وكم يُشنق في حبال الدنيا، وهو مستكين، يضحك والموت ينادي: ويحك!، ويلعب والفناء أطمع في بقائه من أَشْعَب:

ليتنا يوم وصلنا المنحنى ... ومررنا بالفضى زرنا ثمد

فعسى الله أن يُركبنا سفينة محمد ﷺ، فقد نادانا حادي السير: اركب معنا ولا تكن من الغافلين، وأذّن فينا بلال الأنذار: لا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

فالبدار البدار، قبل موت الأهل، وخراب الدار:

هذا وأيامك الأولى غدت أسفاً ... وعمرك الفذ أضحى في الهوى ندماً

* * *



المجلس الثالث: ذبح لمرضات اللّه عز وجل

العظماء يُذبحون في سبيل العظيم سبحانه؛ لأنهم بايعوا منه أنفسهم نقداً، وقبضوا ثمن الأرواح في مجلس العقد على معاهدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

والمفلِسون تخرج أنفسهم غصباً؛ لأن الثمن نسيئة، وعقد البيع بلا شهود، مكتوب فيه ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣].

أما عمر بن الخطاب، أما أبو حفص، شيخ الشيوخ، وقرة عيون الشباب، فأتاه الموت في صلاة الفجر؛ ليعْظُم الأجر، وليبدأ يومه في الجنة مع نسيم الصباح، وليتهيأ للنزول بعد الرواح، أتته منيته على رأس الخنجر، فضجت دماؤه بلا إله إلا الله تتفجّر، سال دمه في محراب المسجد، يفوح الدم كالمسك ويقطر، كما العسجد:

لله درّك كلُّ قطرة مسلم ... حيّت دماءك ليلة المحراب
لم تبقَ عينٌ بعد عينك في الضحى ... إلا استهلت ثمّ بالأسباب

حجَّ الفاروق فدعا في الأبطح: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، ودفناً في بلد رسولك، فأجاب الله دعوته، وذبح في مرضاته مهجته.

فما أحسن المصرع بين المنبر والروضة، كان يقرأ في الصلاة فسكت الصوت، وحضر الموت، ومُزّق أديمه، وبكى حريمه، وكفنت سعادة الإسلام في أكفانه، وحنطت عدالة الملّة في أردانه.

يا صاحب الدِّرة التي أطرت بها النوم من عين الخونة الناكثين.

يا صاحب الثوب المرقّع الذي حقرت به الدنيا في عيون الناسكين.

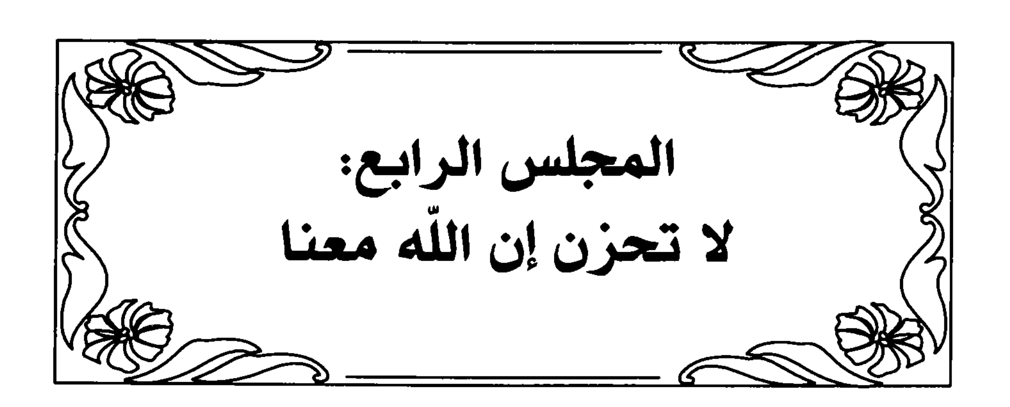
يا صاحب الصوت الجهوريّ الذي أخفتَ به المارقين.

تالله لقد صرت إكليلاً على هامة العدالة، وشهيداً ترويه مجالس السّمار لرواد الشجاعة والبسالة.

من لعين شفها طول النوى ... ولقلب شفّه طول السهد
جسد لفّفَ في أكفانه ... رحمة الله على ذاك الجسد

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٢، ١٣].

❁ ❁ ❁



المجلس الرابع: لا تحزن إن اللّه معنا

هذه العبارة صاغها رسولنا ﷺ في لحظة من لحظات معاناته، وتنفَّس بها في زمن أحاطت به الدنيا، وهو في الغار، يستتر من أعدائه، فيلاحقونه من كل جانب، ويرصدون عليه الطرق، ويُغلقون عليه المنافذ، ويُوصدون في وجهه الأبواب، لكنهم ما استطاعوا أن يُغلقوا باباً واحداً، أو يرصدوا طريقاً واحداً، ويقطعون حبلاً واحداً.

هناك باب الله المفتوح لمن أراد القرب ممن ناداه.

وهناك حبل الله الممدود لأوليائه المتصل بأحبابه.

هتف ﷺ للصدّيق وهما في الغار: «**لا تحزن إن الله معنا**»(١) معنا يرانا ويرعانا، معنا يحوطنا ويحفظنا، معنا يدافع عنا ويقبل منا، معنا بحفظه ورعايته، معنا بحمايته وكفايته، معنا فلا نخاف ولا نُهزم، معنا فلا نخزى ولا نندم، معنا ولو كانت الدنيا معهم.

أنت القوي فقد حملت عقيدة ... أما سواك فحاملوا أوزار
يتفاخرون بهذه الدنيا وقد ... طُبعت على الإيراد والإصدار

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٥، ٣٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٠٠٩)، وأحمد برقم (٣).

دنيا وباعوا دينهم في حبّها   يا ذلة المشرى وقبح الشاري

سبحان من حمى رسوله من الحساد والأضداد والأوغاد.

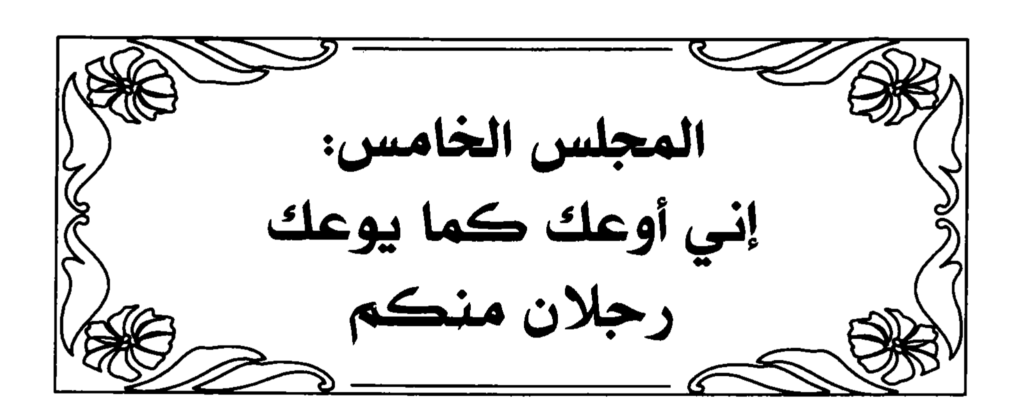
سبحان من جعل العاقبة له، وجعل الدائرة على أعدائه.

سبحان من شرح صدره، ورفع ذكره، وأعلى قدره، وعظّم أجره.

سبحان من أراه ألوية الكفر تتمزّق، وقلاع الباطل تتحرّق، وكتائب الإيمان تتدفّق.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ١ ـ ٣].





المجلس الخامس: إني أوعك كما يوعك رجلان منكم

هذه كلمة المعصوم ﷺ يبوح بها، والحمّى ملء جسده، تصارعه على فراشه، كما صارعته الأحداث والمصائب من كل جانب.

أبنتَ الدّهر عندي كل بنتٍ فكيف نجوت أنت من الزحام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

هذا الجسم البريء، هذا الكيان الطاهر، هذا الجناب الشريف، يرتعد من الحمّى، ويرتجف من الألم؛ ليحصل على أعظم منزلة حصل عليها محموم، وأرفع درجة تبوأها مريض.

البلاء على قدر المحبة، والأجر على مقدار الصبر، وأعظم حبيب للمولى جلّت قدرته، هو: رسولنا ﷺ، والله إذا أحب عبداً ابتلاه ليرى صبره، وشكره، وتسليمه، وإذعانه، فكان رسولنا ﷺ إمام الصابرين، لا يسبقه في مضمار الصبر أحد، وكان قدوة الشاكرين، لا يتقدم عليه في باب الشكر مخلوق. فجمع الله له المنزلتين والدرجتين: الصبر في منتهاه والشكر من أعلاه.

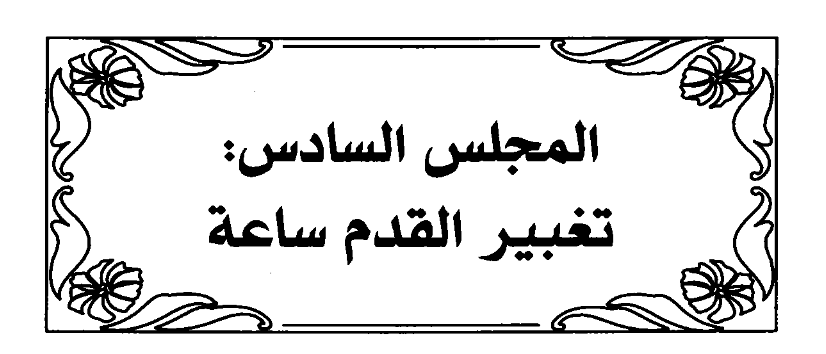
«لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا وَصَب ولا نَصَب ولا مرض حتى الشوكة إلا كفّر الله بها من خطاياه»(1).

إذاً هناك رب يُكَفِّر، وإيمان يعصم، وحسنات تُعْطى، وأجر ينتظر، فهنيئاً لمن اتبع هذا الرسول ﷺ.



---

(1) أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٢)، ومسلم برقم (٢٥٧٣)، وأحمد برقم (٧٩٦٧، ٨٢١٩)، وغيرهم.



لما تهيأ أسامة بن زيد خارجاً بجيشه في سبيل الله، بعد وفاة الرسول ﷺ، ودَّعه الخليفة الأول، والصديق الكريم: أبو بكر، رضي الله عنه.

أسامة راكب، وأبو بكر ماشي، فهمّ أسامة بالنزول، ليركب الخليفة، فقال الصدِّيق: لا تنزل، ووالله، لا أركب، وما عليّ أن أغبّر قدمي ساعة في سبيل الله.

وأنا أقف وإيّاك أمام هذه الكلمة متسائلين:

يا ترى، هل هذه أول ساعة يغبِّر فيها الصدِّيق قدمه؟

أما سبق له أن غبَّرها كثيراً؟

أما غبَّرت قدمه في مكة يوم قلَّ الناصر، وتوتر القريب، وتنكّرت المعرفة، وكثر الشامت؟

أما غبَّر قدمه يوم بدر، والموت يزحف، والكفر يغلي، وأرواح المؤمنين تتطاير إلى جنة عرضها السموات والأرض؟

أما غبَّر قدمه في أُحد، يوم تدانت الصفوف، وتكسّرت على

رؤوس الأبطال السيوف، واشتد الخطب وبان الهول؟

أما غبَّر قدمه، وهو يذرع صحراء الجزيرة إلى تبوك، والجوع ملء أحشائه، والظمأ يعصر كبده، والحرّ يصل إلى كل ذرة في جسمه، والغبار يداعب خياشيمه؟

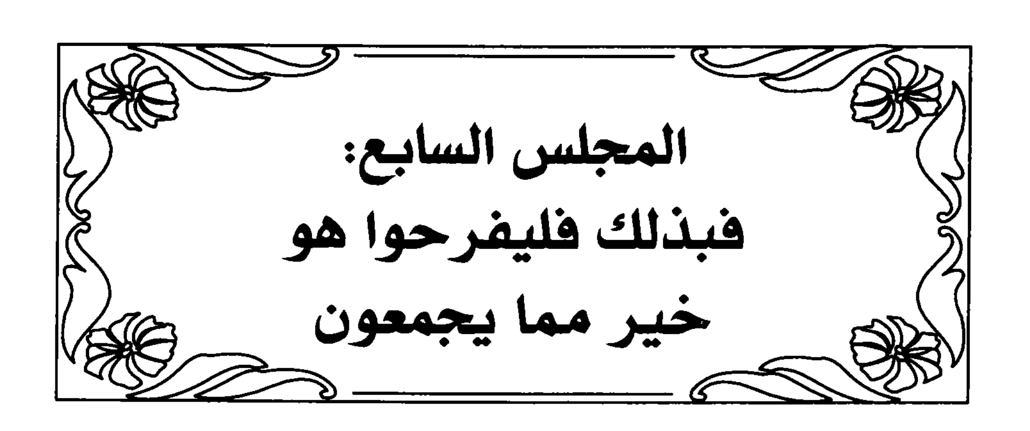
أما غبَّر قدمه في الغدوات والروحات، والظلمات إلى الجمَع والجماعات؟

هذا هو ما فعله أبو بكر الصديق فماذا فعلنا نحن!

متى نغبر أقدامنا، متى جاهدنا، أين غزواتنا، أين تضحياتنا؟

دع المدح للصديق يُشرق في الدجى ودع كل ذكر في معاليه يكتب





إذا فرح الناس بالمال والجاه، فافرح بلا إله إلا الله.

إذا سعدوا بالدرهم والدينار، فاسعد بحب الواحد القهّار.

إذا أنِسوا بالأهلِ والخلاّن، فانس بذكر الملك الديّان.

مساكين هذا الحي ما ذر شارق ... من البين إلاّ أمطروا بالمحاجر

يقول رسولنا ﷺ: **«لئن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خير مما طلعت عليه الشمس»**(١).

فكيف يفرح الملأ من بعد هذا الخطاب بأهل، أو أحباب، أو مال، أو أصحاب.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

من غرَّته نضارة جسمه، ووسامة رسمه، فليذكر الدود إذا تحدّر في الخدود، والتراب إذا أهيل على الأهداب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥)، والترمذي برقم (٣٥٩٧).

ومن خدمته منزلته، وأعجبه سلطانُه، فليتذكر يوم تهدم في القبر أركانه، وتسقط في اللّحد أسنانُه، ويتقطع في الطين لسانه:

وسلاطينهُم سل الطين عنهم   والرؤوس العظام صارت عظاماً

عجباً للموت ذهب بعقول الألباء، ومزق ألسنة الخطباء، وكسّر أقلامَ الأدباء.

كل شيء يذوب في التراب إلا العمل الصالح، وكل شيء يذهب إلا الذكر الجميل.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ١٦].

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

❁ ❁ ❁



لا تعيش المبادىء إلا مع التضحيات.

هل علمت أن رسولنا ﷺ وُضع السَّلى على رأسه، وأُدميت عقباه، وكسرت ثنيَّته، وشُج رأسه، وقُتل أحبابه، وربط الحجر من الجوع على بطنه، وغُلب في بعض المواقف، ونيل من جنابه الطاهر، وحبس في شعب أبي طالب، وسمع السبَّ بأذنيه، ورأى المكائد بعينيه، وطرد من دياره، ورُمي بالجنون والسحر والكهانة!

أما علمت أن أحمد بن حنبل رمي في الحبس، وضُرب ضرباً مبرّحاً، ومُنع من التدريس، وخوِّف بالقتل!

وهذا ابن تيمية يُرمى في السجن، ويُهدر دمُه، ويُسبُّ عرضه، ويُتَّهم دينه!

وعمر نُحر في المحراب ومُزّق جسمه بالحراب.

وعثمان سالت مهجته بسيف الثوار على المصحف، وهو في الثمانين.

وعليٌّ ضُرب جبينه بسيف الخوارج، حتى سال دم رأسه من رأس لحيته.

كيف تنبت أشجار المبادئ والأفكار بلا مواقف؟

كيف تعشق القلوب جباناً يعيش لبطنه؟

كيف تحب الأمة حقيراً ليس له في التضحية تاريخ، وفي البطولة قدم، ولا في الإقدام منبر؟

❁ ❁ ❁



المجلس التاسع: ورفعنا لك ذكرك

أين من حارب الرسل، عليهم الصلاة والسلام، أين ذكرهم؟ ما هي عاقبتهم؟ أين من نصب العداء للمعصوم؟ لقد ذهبت ريحهم، وسفلت كلمتهم، وقُطِع دابرهم.

وأما هو فعاشت مبادؤه، وَانتشرت رسالته، وانتصرت كتائبه، نسخ تاريخهم من القلوب، وكتب تاريخه يُمجد علاّم الغيوب. اسمه يدوي فوق المنابر، وتعاليمه تجلجل على المنابر، وأعداؤه يُلعنون في كل موسم ويُشتَمون في كل مجمع.

أين من سجن أحمد بن حنبل وجلده؟ هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً، أحمد بن حنبل معنا دائماً بذكره وعلمه وسيرته، وأما هم فلا نعرفهم ولا نذكرهم ولا نحبهم.

أين خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية؟ مات تاريخهم معهم، وفتاويهم وأقوالهم، هم نكرات في العالم، وهوامش في الدواوين، منسيُّون في ذاكرة الزمن، وهو ملء السمع والبصر، ذكره يشنّف الآذان، وصوته يجلجل في الأزمان، وعلمه يوزّع في الشيوخ والشبّان: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

سرى ذكرهم كالمسك ينشر في الورى وذكر سواهم زكمة في الخياشم

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].





المجلس العاشر: أليس الله بكاف عبده

ارضَ بكفاية الله يكفيك عن كل كافية، فإنه غالب على أمره، ولا يغلبه أحد، وتوكل عليه، فإنه حي لا يموت وسواه ميّت.

أما كفى إبراهيم الخليل، وقد ألقِيَ في النار، فصيَّرها له برداً وسلاماً.

أما أنجى نوحاً من الطوفان يوم صارت الأرض كوكباً في بحر من الماء.

أما شقَّ البحر لموسى ودمَّر عدوّه، وفجَّر له الصخر بالماء العذب.

أما حمى رسولنا ﷺ في كل معترك، أما أنقذه من الويلات.

أما نجّاه من الاغتيالات، أما نصره في الغزوات، أما آنس قلبه من الوحشة، وثبَّت فؤاده في الهول، وشدّ أزره في النازلات.

من الذي دعاه فما لبّاه؟ ومن هو الذي انطرح على عتباته فما أجاب دعواته؟ ومن الذي سأله فما أعطاه، ومن ذا الذي لجأ إليه فما كفاه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يُغْني ويفقر، ويحيي ويميت، ويولي ويعزل، ويملك ويخلع، ويُمْرِض ويشافي، ويبتلي ويعافي.

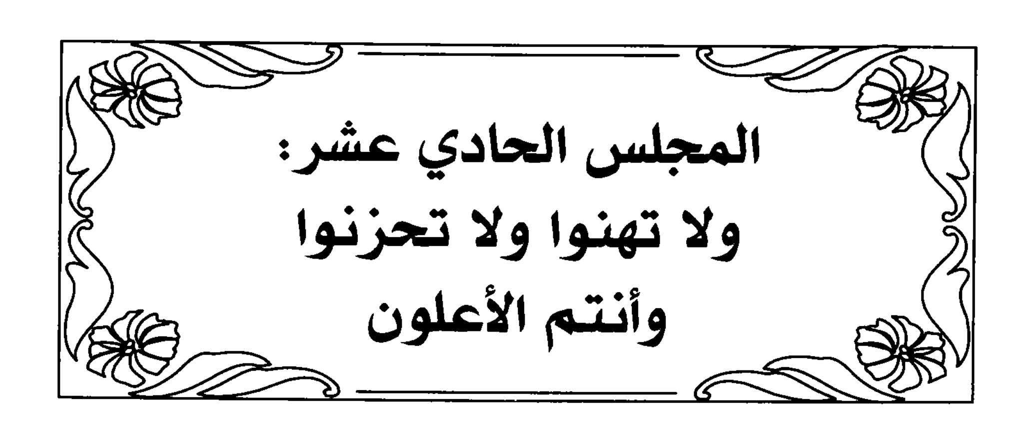
النواصي بيده والمقاليد في قبضته، والخلائق في تصرفه.

إلـجـأ إلـيـه إذا دهـتـك مـهـمـة   واقـصـد جـنـاب الـواحـد الـقـهّـار
واعـلـم بـأن الله جـل جـلالـه   هـو كـاتـب الأرزاق والأقـدار

بالله عليك، يا مسلم، أن تقرع بابه، وأن تقصد جنابه، وأن تتدبَّر كتابه، وأن تصاحب أحبابه، عندها سوف تجد اليسر والفلاح، وتغنم الأجر والنجاح:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

❁ ❁ ❁



المجلس الحادي عشر: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون

الأعلون عقيدة، فهي: بيضاء راسخة رسوخ الجبال، صادقة صدق الفجر، كاملة كمال حاملها ﷺ.

الأعلون عبوديَّة، فالرب والإِلٰه والناصر والكافي والرازق هو الله رب العالمين.

والأعلون مثلاً، فهي: صفوة التعاليم، وخلاصة قيم الأمم، وغرّة ما وصلت إليها الكتب المقدسة.

والأعلون كتاباً، فهو وحي يوحى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يُمَل على كثرة الترداد، ولا تفنى عجائبه، ولا تنقضي عبره.

والأعلون رسالة، فهي: ربانية عالمية شاملة كاملة، فهي سر إنقاذ العالم، ومكنون فلاح الإنسان، ومصدر نجاة البشر في دنياه وأخراه.

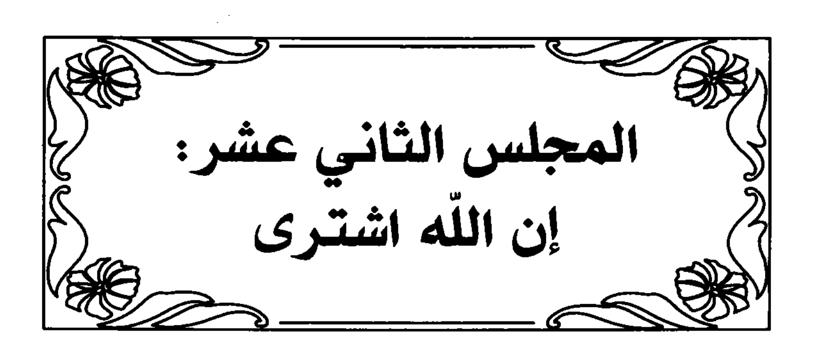
والأعلون قائداً، فهو: معصوم مؤيد بالوحي، ظاهر بالحجّة قبلكم، حاكم بالعدل، حامل للحق، ناشر للفضيلة، قدوة للأنام.

والأعلون تاريخاً، ففي القائمة: الصدِّيق، والفاروق، وذو النورين، وأبو السبطين، وسيف الله، وحواري رسول الله، وأمين الأمة، وهلمّ جراً.

والأعلون تضحية، فسلوا بدراً، وأحداً، والقادسية، واليرموك، وحطين، وعين جالوت، سلوا جماجم الشرفاء في الدنيا لماذا قطعت؟ وسلوا دماء الأبطال في أودية المعمورة لما سُفكت؟ وسلوا المهج الطاهرة لأي مبدأ قُتلت؟

والأعلون تراثاً، فليس عندكم حكايات ألف ليلة وليلة، ولا أكاذيب حمورابي، وهوَس أفلاطون، ولا أحلام شكسبير، لكنْ عندكم كتاباً يُتلى، وسنَّة تتبع، وآيات وعظات، وسلطاناً وبرهاناً، ونوراً وهداية، وشفاءً لما في الصدور.





المجلس الثاني عشر: إن الله اشترى

عقد مكتوب، وميثاق موقع، وسلعة تعرض، ومُهج تُباع.

المشتري هو الله جل جلاله، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ومَن أوفى من الله؟ والباعة المؤمنون روّاد بدر وأحد، وتلك المواقف المأثورة والمشاهد المذكورة.

والسلعة: جنَّة عرضها السموات والأرض، مَن دخلها لا يهرم، ولا يندم، لا يبلى شبابه، ولا تذبل ثيابه.

والثمن: مهج المصلين، طارت من الصدور على رؤوس السيوف، وتناثرت من الأحشاء على صدور الرماح، فهل سمعت بيعاً كهذا البيع أوفى، وأغلى، وأجمل، وأكمل، وأشرق، وألطف؟!!

أمضاه أحمد عن أبطال أمته والله أنزله عهداً وميثاقاً

الأموال، والأنفس، والأعراض، والجماجم، والدماء كلها لمن خلقها، وإنما هي عندنا عارية، وصاحب العارية أحق بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

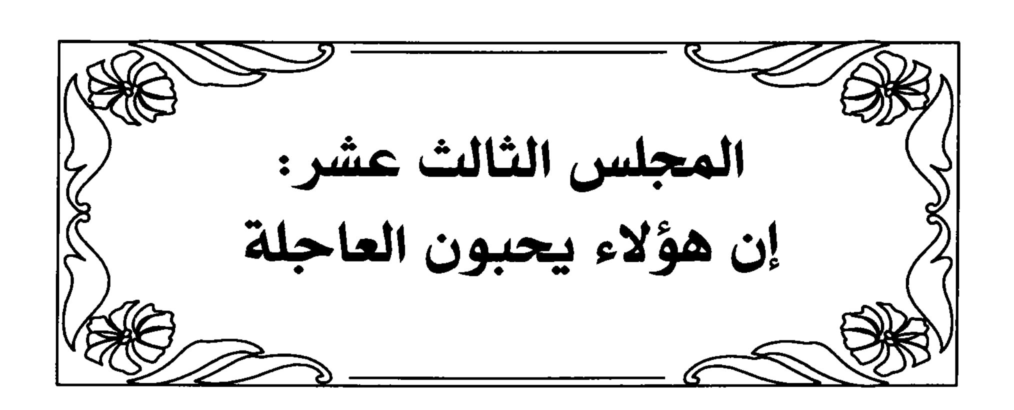
ليس لنا شيء، ولا معنا وعندنا شيء، فالعطاء، والهبة، والمنح،

والأيادي من الله عز وجل، خلق، ورزق، وعافى، وستر، ولطف، وتكفَّل.

من بخل بمهجته في سبيل الله، خرجت منه غصباً، وسالت رخيصة وذهبت ذليلة:

نفوس تذوق الموت قتلاً ولا ترى سوى القتل للمجد المبجَّل مكسباً

۞ ۞ ۞



المجلس الثالث عشر: إن هؤلاء يحبون العاجلة

عبيد الدرهم والدنانير أذيال الدنيا، الحقراء التافهون، لا همَّ لهم ولا مقاصد، مطالبهم في الحياة كساء وغذاء ولذّة.

بخلاء جبناء، ألسنتهم والغة في أعراض الأوفياء، وأيديهم مقبوضة عن العطاء، وقلوبهم قاسية مليئة بالبغضاء، يحبون العاجلة فيعملون لها، ويتحابّون من أجلها، ويرتاحون لذكرها، ويحبّون العاجلة فيخدمونها، فهو قيام في ليالٍ الهوى على أقدام الطمع، ووقوف على أبواب الشح، يستجدون بأكفِّ الفقر، فهم فقراء ولو جَمَعوا، جوعى ولو شبعوا.

ومن ينفق السَّاعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي صنع الفقر

يحبون العاجلة، وهي عاجلة في سعادتها فلا تدوم، عاجلة في راحتها فلا تبقى، عاجلة في عمرها فلا تستمر.

ذنبهم: أنهم يحبّون العاجلة، وسيئتهم: أنهم يعشقون العاجلة.

نسوا ذكر الله، وهجروا بيوته، وصدّوا عن سبيله، لأنهم يحبُّون العاجلة.

حاربوا أولياء الله، وتعدّوا حدوده، وانتهكوا حرماته؛ لأنهم يحبّون العاجلة.

يستعجلون شهواتهم، ويبحثون عن رغباتهم، وهم سكارى في غفلاتهم، ويكفي أنهم يحبون العاجلة.

فالله نسأل أن لا يجعلنا من عبيد الدراهم، وأن يتولانا بحفظه، ويكلأنا برعايته، ويقيمنا على صراطه المستقيم، وأن يجعلنا من عباده على الحقيقة.

والله أعلم. وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

